أختيرت للقائمة الطويلة لجائزة البوكر العالمية لعام ٢٠١٦

المجاعة البيضاء

آكي أوليكانين

ترجمة: خالد مكاوي



روايات مترجمة



المجاعة البيضاء



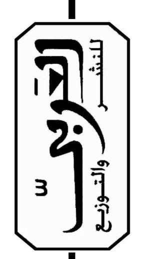
المجاعة البيضاء

آكي أوليكاانين

ترجمة: خالد مكاوي

رقم الإيداع: 2016/13385
الترقيم الدولي: 9789773192808

الغلاف: محمد حافظ
تحرير: هدى فضل
مراجعة لغوية: محمد حامد بكر



60شارع القصرالعيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

Nälkävuosi

Published by arrangement with Siltala Publishing, Finland

آكي أوليكانين

المجاعة البيضاء

رواية

ترجمة: خالد مكاوي





تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة الترجمة
المقدمة من معرض الشارقة الدولي للكتاب

This book has been translated with the assistance
of the Sharjah International Book Fair Translation
Grant Fund

بطاقة فهرسة

أوليكانين ،آكي
المجاعة البيضاء: رواية من الأدب الفنلندي / تأليف آكي أوليكانين، ترجمة خالد مكاوي .
- القاهرة : العربي للنشر والتوزيع، 2016
ص ؛ سم .
تدمك 9789773192808
1- القصص الفنلندية
أ- مكاوي، خالد (مترجم)
ب- العنوان 894.543

"مثل رواية الطريق لــ"كورماك مكارثي"، تتناول تلك القصة الرهيبة رغبة البشرية في البقاء، ولنكن أمناء: ستمر عليكم لحظة لن تستطيعوا استكمال هذا الكتاب حيث الكآبة المغطاة بالثلوج، ولكن ومع ظهور أول أشعة شمس الربيع، سينتعش إيماننا في الروح الإنسانية، فهي قصة رائعة".

"مايكا زيرفوجل" - دار بيرنه للنشر



تمهيد



أصدرت مساند المجداف صوتًا شبيهًا بصياح الطيور.

ترقد سمكتان "كراكي" هزيلتان في قاع القارب. بدتا كثعبانين أكثر منهما سمكتين. توقفتا عن الانتفاض. جمدهما البرد. لا يزال فكيهما يقطران دمًا، اختلطت قطراته بالمياه حول قدمي "ماتالينا".

وضعت "ماتالينا" يدها في البحيرة الباردة، تركتها تنزلق في المياه إلى جانب القارب حتى بدأت تشعر بالألم في مفصلها بسبب البرد. كانت الرياح تدفع بالأمواج إلى خارج البحيرة. والسماء المنعكسة على سطح الماء تبدو مجزأة، وغير مكتملة، وكأنها مُحطمة.

مد "يوهاني" رقبته القوية الطويلة لينظر للسماء. تشبه "ماتالينا" أباها؛ وجهه، أنفه النحيف الصغير، الذي بدا وكأنه ملعقة فضية صغيرة خلفها السماء.

تنهد "يوهاني":

– انهم يتجهون إلى الجنوب بالفعل.

– مَنْ؟

– البجع.

– لا أرى أية طيور.

– هذا لأنها رحلت بالفعل.

نظر "يوهاني" إلى "ماتالينا" وقال:

– على أية حال، حصلنا على بعض السمك.

❄ ❄ ❄

سحب "يوهاني" القارب إلى خارج المياه ووضعه بين الشجيرات. أقبلت "ماريا" عليهما وهي تحمل "يوهو". أنزلت الطفل على الأرض، ثم أمسكت "ماتالينا" بيد أخيها الصغير، بينما نظرت "ماريا" إلى القارب وقالت:

– ياله من سمك نحيف.

انعكاس الأشجار على سطح المياه لونه أسود. وفي مكان ما بينها، سُمِعَ صوت البط الغوّاص، الذي سيطير إلى الجنوب قريبًا.

دخلوا الغابة عبر طريق ضيق. وعندما انحنت "ماريا" للبحث عن نبات "عنب الثور"، سمعت فحيحًا غاضبًا سريعًا، كصوت جمرة متوهجة سقطت في الماء. صرخت، وقفزت للخلف. ولكنها فقدت اتزانها، فوقعت بين الشجيرات. أولاً رأت نقاطًا باهتة؛ ثمرات "العنب الثوري" الشاحبة التي تغطيها الثلوج. ثم نظرت في اتجاه الفحيح، وعندما بدأت الرؤية تتضح، رأت ثعبانًا، لون عينيه يشبه لون التوت المتجمد، ونابه يشبهان رقائق الثلج المدببة. ولكنه لم يهاجمها، بل ظل يُصدِر فحيحه فحسب.

تقدم "يوهاني" رافعًا حجرًا في يده، ثم ضرب به الثعبان، الذي لم يستطع التحرك بسببه.

وفي نفس واحد، أخرجت "ماريا" الهواء الذي حجزه الفزع في معدتها، وأمسك "يوهاني" يديها وساعدها على النهوض.

– الشيطان المسكين، أفقده الثلج الوعي، لم يتمكن من الهرب.

نظرت "ماريا" إلى الحجر، وكأنها تستطيع رؤية الثعبان من خلاله، وسألت:

– هل ما يزال على قيد الحياة؟

أجابها "يوهاني" وهو ينحني لرفع الحجر:

– لا.

– لا ترفعه بالله عليك! اتركه كما هو، لا أريد رؤية ثعبان ميت.

– حسنًا.

❄ ❄ ❄

دوَّى صوت أزيز ناعم عندما سقط الجزء الملتهب في مياه الدلو. نجح الضوء الخافت في تتبع ظل "يوهاني" على الحائط وهو ينهض من فراشه، ويرفع ملابس "ماريا" واضعًا يديه على ركبتيها مباعدًا بين ساقيها، فأمسكت "ماريا" بقضيب "يوهاني" المنتصب. كانت تريد مضاجعته

أيضًا ولكن خوفها كان أكبر من رغبتها المتقدة، ماذا إذا حملت مجددًا؟ فما هذا إلا فم جديد يحتاج للإطعام في ظل هذا البؤس. أبعدت "ماريا" "يوهاني" بدفعه إلى الفراش، فتنهد محاولًا إخفاء إحباطه.

حركت "ماريا" يدها ببطء صعودًا وهبوطًا ضاغطة على عضوه، ففلت من "يوهاني" أنين خافت، ثم وضعت يدها بين ساقيها، استمنى "يوهاني" أولًا، وعضت "ماريا" ياقة قميص نومها، واجتاحت أمواج الرغبة جسدها، وعقب إحساسها بالجوع مرة أخرى، ضربت رأس عضو " يوهاني" وأخذت تفكر في أسماك الكراكي النحيلة.



أكتوبر 1867



عليه أن يضحي بالعسكري. وإلا سينجح الوزير الأبيض في استدراج الملك إلى الركن حيث لن يجد الفيل، الواقف على بعد خطوات، الوقت لإنقاذ الملك.

على "لارس رينكفيست" أن يقر بأن الوضع على رقعة الشطرنج لا يوحي بالأمل. كان "تيو" ينقر على حافة الترابيزة بانفعال وهو يقول لأخيه:

- استسلم وحسب، لماذا لا تستسلم؟ أو لنتوقف الآن ونواصل في وقت آخر.

- حسنًا، سننهي المباراة في لقائنا المقبل.

راقب "تيو" وجه أخيه باستمتاع. كان "لارس" ما يزال يتفحص القطع على رقعة الشطرنج، وهو يحك جبهته مثل رئيسه الموقر في مجلس الشيوخ، فقال له:

- في رأيي، إن رئيسك هذا مخطئ.

تنهد "لارس" وهو يجيبه:

- أنت لا تفهم جوهر تلك الأمة.

ونهض ليصبَّ شراب "البنش" في كؤوسٍ صغيرة، أعطى إحداهم لــ"تيو" واستطرد:

- نحتاج إلى توفير فرص العمل للشعب، فإذا ما بدأت بإمدادهم بالحبوب بدون مقابل، سينتهي بك الحال إلى هوة لا قرار لها، وبالتالي فإن أكثر واجباتنا أهمية هو توفير فرص العمل للعاطلين.

- العمل بلا طعام لا فائدة له، فما الفائدة إذًا؟

ارتبك "لارس". كان السيناتور قد رتب لقرض بلا ضمانات من عائلة "روتشيلد"[1]، معتمدًا على السمعة الطيبة لبلده، ولا يجب السماح للاضطراب الناتج عن أول عقبة بأن يؤثر على تلك الثقة، فاندفع قائلًا:

– لا أستطيع أن أرى سببًا لعدم فهمك للأمر.

في تلك اللحظة، انفتحت أبواب الصالون، ودخلت "راكل" بصينية الشاي، ووضعتها على منضدة صغيرة. فكَّر "لارس" أن توقيتها جيد. أخذ نفسًا عميقًا، وهدأته نظرة زوجته العطوفة.

فكَّر "تيو" أن "راكل" أكثر حكمة من زوجها. لو كانت مكانه لاستطاعت حل مشكلة التسول، فقط إذا كان يملك الجرأة الكافية ليطلب مشورتها. كانت لتقوم بتشجيع الجميع على العودة لمنازلهم وإخبارهم بأن يصبروا وينتظروا، حيث سيتوافر الطعام بمجرد الحصول على طاسة تناسب حجم الطعام.

بدا "لارس" كأب صبور يشرح شيء ما لابنه للمرة السابعة:

(1) هي إحدى العائلات ذات الأصول اليهودية الألمانية, تأسست على يد إسحق إكانان، وأما لقب "روتشيلد" فهو يعني" الدرع الأحمر"، في إشارة إلى "الدرع" الذي ميز باب قصر مؤسس العائلة في فرانكفورت في القرن السادس عشر.

- تتلخص الفكرة في أن رجال الأعمال كانوا ينوون تحضير مؤن من الحبوب للطوارئ، وكان هذا هو اقتراح السيناتور، وليس خطأه أن التجار لم ينسِّقوا العمل مع بعضهم البعض.

قال "تيو" :

- لم يطلب أحد تلك الحبوب، وعلى أية حال كان عليك أن تطالب التجار بإطعام الفقراء كما شجعت الوزراء على فعل أي شيء تأمرهم به.

أسكت ذكر الوزراء "لارس" للحظة، واعتقد "تيو" أن شقيقه لا يزال يشعر بالذنب حيث لم يحقق أي منهما رغبة أبيهما في التفرغ لدراسة علم اللاهوت، فتدخلت "راكل":

- أعرف شخصًا على استعدادٍ لفعل أي شيء من أجل عاهرات "بونافوري".

ففرد "تيو" ذراعيه وقال:

- إنني طبيب الفقراء، مثل "باراسيلسوس" العظيم.

- إذًا علينا ألا نقلق بشأن عاهرات "بونافوري" ما دام "باراسيلسوس" العظيم سيقوم برعايتهن.

فانفجر "لارس" في الضحك بينما صفعت "راكل" الباب وهي خارجة كعلامة على انتصارها، وسرَّ "تيو" أيضًا بتخيله ابتسامة النصر التي ارتسمت على شفتي "راكل" حيث كانت صاحبة الكلمة الأخيرة، ولولا كونها عاقرًا، لأصبحت أمًا عظيمة. قد تكون المشكلة في "لارس" وليست فيها، فكَّر "تيو"؛ ربما حُكِم على عائلتهم أن تنتهي بهما.

وربما كان هذا هو صلب الموضوع، الجوع يقضي على أضعف المواطنين تمامًا كما يقلم البستاني الأفرع الفاسدة في شجرة التفاح.

❄ ❄ ❄

بعد رحيل "تيو" عاد اهتمام "لارس" إلى الموقف على رقعة الشطرنج، فعن طريق العسكري سيتمكن من توفير الوقت لمزيد من الحركات. ولكن يجب أن يرتكب "تيو" خطأ كبيرًا حتى يتعادل معه، فهو خسر المباراة بالفعل. شعر "لارس" أن "تيو" أوقف اللعب لغرضٍ ما، فربما أراد أن يتيح الوقت لــ"لارس" ليحلل الموقف ويلاحظ مدى بؤس موقفه.

سرح "لارس" وتخيَّل تعبيرات السيناتور القاسية وهو يزمجر:

- هل لدى المحاسب أي شيء آخر ليقوله؟ لقد أمليتك رسالتي، فاذهب وسلمها!

كان قد مر شهر. وقف "لارس" على باب السيناتور قابضًا على برقية من المحافظ "ألفتان". كان حريصًا على ألا يجعِّدها، حيث احتفظ السيناتور لنفسه بحق كرمشة البرقيات وإلقائها في أنحاء الغرفة غضبًا. نفد مخزون الحبوب في الشمال، وأراد "ألفتان" مساعدة ضرورية وعاجلة. كان "لارس" مجرد رسول، ولكن السيناتور صبَّ غضبه عليه. ربما كان الموقف قد وصل إلى درجة مرعبة حقًا. كانت لـ"لارس" الجرأة الكافية للنطق بهذه الجملة. رد السيناتور عليه بأنه لا بُدَّ وأن الموقف هكذا بالفعل، على الأقل هو هكذا في المنازل. ترك "لارس" المجال لتكملة اللعنات. في البداية كره نفسه وشخصيته المترددة ثم كره كل من يحملون اسم "ألفتان"، وكل البيروقراطيين الذين يُظهرون الضعف في المواقف الصعبة، ويلينون مع أول هبة ريح، تاركين الرجال العظام من أمثال السيناتور يواجهون العاصفة بمفردهم. وأخيرًا قام بلعن الفلاحين المحليين الأغبياء من أصحاب الأراضي البدناء الكسالى الذين طردوا عمَّالهم ليزيدوا من حصتهم الشخصية من الأرباح، على الرغم من أنه يتوجب عليهم إطعام رعاياهم سواء كانوا عمالًا أم متسولين فقراء.

قالت "راكل":

– هذه النبتة لن تحتمل الخريف أكثر من هذا.

نظر "لارس" إلى زوجته مستفسرًا. كانت تقف بجوار "الوردة الصينية" تمسح أوراقها الخضراء بلطف، وقالت:

– لم تنبت أية زهور خلال أسبوع كامل.

– أوه، حقًا؟ في الماضي كانت تنبت بعد عيد جميع القديسين، أليس كذلك؟

جاهد "لارس" ليقف ويذهب إلى زوجته، حيث يصيبها نفس الحزن كلما بدأت الوردة الصينية بياتها الشتوي. حينها تشعر بأنها جُرِّدَت من الدفء والحب. وتنتابها نفس المخاوف طوال الشتاء، وتلقي بنفس السؤال على "لارس" عند عودته من العمل ليجدها تُداعِب أوراق الوردة كل سنة في نفس الوقت:

– ماذا إن لم تزهر مرة أخرى؟

– سيزهر منها الكثير بحلول الربيع.

– ربما، ربما، ولكن في هذه الأيام يبدو أن كل شئ جميل يذبل.

❄ ❄ ❄

فارسٌ بعمامةٍ يسافر عبر الصحراء، وبين ذراعيه تجلس امرأة مُحجَّبة. بينما تنعكس أشعة الشمس الغاربة على قصر فأصبح لونه ذهبيًا لامعًا.

انحنت "سيسيليا" عارية على الطشت وغسلت ما بين ساقيها. جرت المياه خلال شعيرات عانتها السوداء لتعدل من تعريجاتها. تساقطت قطرات المياه في الطشت، ثم اعتدلت ووضعت يداها على ركبتيها حيث قرفصت وفتحت ساقيها قليلًا، وبقي فرجها فاتحًا شفتيه بعد الجماع. قالت:

- تبدو غبيًا وفمك مفتوح هكذا!

أعطاها "تيو" قماشة كتانية لتجفف نفسها بها، وسألها:

- ما اسمك؟ أعني اسمك الحقيقي؟

- ألا يروقك اسم "سيسيليا" ؟ اسمي "إلين"، ولكن سيدتي أرادت مناداتي بـ"سيسيليا"، أو "سيسيل".

- وهل أنتِ بالفعل سويدية من "دالارنا"؟

- أجل.

بإمكانها بعد ساعة واحدة أن تكون من أوكرانيا أو بولندا إذا ما تطلب الأمر هذا. دفعت بالطشت أسفل المنضدة، فكشفت لـ"تيو" عن

مؤخرتها في نفس الوقت، حيث انحنت أكثر من اللازم. وقد أتى فعلها بثماره المرجوة. حاول "تيو" أن يدير ظهره إليها ولكنه ظل في مكانه، والتصقت عيناه بالأرداف العارية، حيث يظهر الخط الوردي من بين الجلد الشاحب لردفيها المكتنزين. قال "تيو" لنفسه، "إنها تعلم بضرورة رحيلي". شعر بضيقة نفس، بينما أخرجت "سيسيليا" قصرية من الخزف الصيني، ووضعته بجانب الطشت وهي منحنية بنفس الطريقة. أثارت المرأة "تيو"، ولكنه عزم على ألا يتركها تفوز باللعبة، أو على أقل تقدير لن يظهر هزيمته أمامها، فقال:

– إنكِ فتاة ريفية، لا جدال في هذا.

– إن هذا المكان لا يشبه مدينة "سان بطرسبرج"، مسقط رأسك ما هو إلا قرية بائسة على جزيرة صغيرة حقيرة.

– لم أقصد الإساءة، ولكنني قصدت أنكِ على سجيتك.

– وما هي سجيتي؟ فتاة ريفية؟ لم قد أريد أن أكون هكذا؟ ربما يكون هذا ما تريده أنت ولست أنا.

ساعد "تيو" "سيسيليا" في ارتداء مشدّ الخصر، وأثناء شدِّه للرباط، رأى صدرها ينتفخ كرغيف الخبز الساخن.

جلست "سيسيليا" أمام التسريحة، ولَّت شعرها على هيئة كعكة. احتك فرع بلا أوراق بالنافذة بفعل الريح، بينما تجمعت سحب رمادية ببطء في السماء. ضربت القطرات الأولى زجاج النافذة، ثم بدأ المطر في الإنهمار.

– أنت في الحقيقة لست معجبًا بما أفعله. لهذا تريد التصديق بأنني فتاة ريفية بريئة. لماذا أعمل هنا في رأيك؟ إذا كنت تحبني، فأنت تحب عاهرة. هل أنت على استعداد لهذا؟

لم يجبها "تيو". كان يركز على جدولين صغيرين كونتهما قطرات المطر ليرى إن كانا سيلحقا ببعضهما البعض قبل أن يوقفهما إطار النافذة.

قبَّلته "سيسيليا" برفق على وجنته، وقالت:

– إنك تدفع جيدًا كي تنام معي، على الرغم من أنه بإمكانك أن تصطحبني وتأخذني لمنزلك وتمتلكني للأبد مجانًا.

– لا يمكنني السير علنًا مع عاهرة تتأبط ذراعي.

ردت "سيسيليا" ببرود وسخرية مفاجئين:

– ولكنني فتاة ريفية بريئة من "دالارنا".

- ألا تعرفين ما الذي سيقوله الناس؟ فضيحة كهذه ستمنعني من ممارسة الطب في هذه المدينة للأبد.

- أتعتقد أنهم لا يعرفون بالفعل؟

- وأنا لا أدفع لهذا.

أكملت "سيسيليا" ارتداء ملابسها، وجلست على الفوتيه الوحيد الموجود بالحجرة، واضعة ساقٍ على الأخرى بسلاسة، حيث اتخذت الوضع الذي يخاطب منه النبيل خدمه، ولكنه وضع لا يلائم امرأة طبقًا لرأي "تيو"، وخصوصًا "سيسيليا"، فدسَّ "تيو" يده في جيبه حتى لا تراها تلك العاهرة المتغطرسة، وتظنه يتوسّل إليها، وكأنه حوذي وضيع. بعدها تذكَّر كيف كان "ماتسون" ورجال الميناء يميلون بأجسادهم للأمام وللخلف أثناء التجديف فأخذ يقلدهم أثناء وقوفه.

- نعم، أنت تقدم خدماتك لسيدتي. حيث تحمي سمعتها، وعندما يأتي المفش الصحي يجد الفتيات لديها في أتم صحة. وفي المقابل أنام معك، وهذا ما يسمى بالمتاجرة عزيزي "تيو".

- إنني أفعل هذا لأجلك، ولأنني أهتم بأمرِك وأمر الأخريات.

– أصدقك. إنك تفعل كل هذا من أجلي، ولكنك تقضي بعض الوقت في عالمي، بينما لا أقضي أي وقت في عالمَك.

فكر "تيو" في كونها أذكى بكثير لأن تكون فتاة ريفية. هذا الذكاء يقلل من براءتها. لم يعد متأكدًا متى تتحدث "إلين" ومتى تتحدث "سيسيليا"، ولم يعد متأكدًا من وجود فرق بينهما، فسألها:

– مَنْ أنتِ؟ "إلين" أم "سيسيليا"؟

– هنا، أنا دائمًا "سيسيليا".

– هل ينبغي لي العودة إلى "دارلانا" للبحث عن "إلين"؟

– ماتت "إلين".

– ألا يمكن أن تُبعث من جديد؟

– أنت فقط من يستطيع فعل هذا، ولكنك تفقد القدرة اللازمة، أنت لست يسوع، إنك تفتقد الشجاعة.

انكمشت الغرفة حول "تيو" وضاقت به.

ارتسمت ابتسامة فارغة على وجه الأميرة البدوية حيث كانت مفروضة عليها طبقًا لمتطلبات الدور الذي تقوم به. وهو نفس سبب عدم

ضحك الفارس أيضًا، فجديته ليست نتيجة لهدوئه البارز، حيث رسم الفنان نفسه مدركًا أن المشهد سيبقى جامدًا إلى الأبد فيما سيبقى القصر على حافة الصحراء مجرد سراب.

❋ ❋ ❋

أنهى العجوز غريب الأطوار حكايته عن جريمة القتل والسرقة التي وقعت في "كوريفسي" وهو جالس القرفصاء:

– انسحقت جمجمة ساعي البريد بضربة واحدة. وانشق ظهره وكأنه سينسلخ، وكانت الدماء تتدفق من "جيبسي هيل" بجنوب لندن. ارتكب "ياني هالي" تلك الجريمة، ذاك الشرير المتوحش الوسيم. الخطير كبلطجية إقليم "بوهيانما"، تقريبًا. ولكنه لا يماثلهم تمامًا، لن تستطيع أن تجد مثيلهم في أي مكان آخر. وهذا هو المكان الذي أتيت منه.

أنهى العجوز الأحدب حكايته عن القتل والسرقة في "كوريفسي".

وجد "تيو" صعوبة في تحديد عمر الرجل، فصوته وحديثه يدلان على صغر سنه، بينما وجهه مجعد كوجه خادم عجوز. تذكر "تيو" قراءته

عن جريمة قتل ساعي البريد بجريدة "داجبلاجت" حيث أحدثت ضجة في "الاقطاعية الكبرى"، لأن الضحية كانت موظفًا حكوميًا.

بدأ أهالي إقليم "بوهيانما" الغناء بصوت عالٍ:

– نبتة "جاني هالي" الحمضية تتقافز على جليد "كوريفيزي"...

توقف الغناء عندما جلس رجل بولندي ضخم على المقعد بجوار الرجل العجوز، حيث احتضن العجوز وبدأ بغناء شيء ما بلغته الأصلية. حاول العجوز التخلص من البولندي الذي كان ثملًا جدًا ولم يلحظ محاولات العجوز للتخلص منه.

حملق البولندي في "تيو" ببلاهة وتمتم:

– دكتور، دكتور، دكتور.

فطن "تيو" إلى أن أفضل طريقة للتخلص من ذلك البولندي هي تقديم المزيد من الخمر له، فأشار إلى صاحبة المكان وطلب كأسًا من الخمر، وعندما سمع العجوز الذي يدَّعي أنه من أهالي إقليم "بوهيانما" ذلك، مدَّ عنقه وأخذ يحرك رأسه بلهفة فيما تعلقت عيناه بصاحبة المكان التي سألته بحدة:

– ولا شيء لكَ؟

وكما فعل مع البولندي، طالبها "تيو" بأن تحضر مشروبًا للعجوز أيضًا الذي مدَّ يده بالكوز منتشيًا.

وبمجرد حصوله على مشروبه، لاحظ البولندي امرأة تجلس على ترابيزة بالركن، فوقف واتجه إليها مترنحًا. لم تُضِعْ المرأة وقتها، حيث لفت ذراعيها حول عنق الرجل، وضحكت بصوت عالٍ عندما دلّك نهديها. لم ينزعج الرجل الذي كان بصحبتها، حيث ابتسم فقط واستند إلى الحائط. كان معه سكين مدسوس في حذائه، وهو ما لفت نظر "تيو" لفترة طويلة.

لمح الرجل "تيو"، فحك ذقنه، وجذب المرأة من كمها وأومأ في اتجاه "تيو"، فبدأت المرأة بالتحديق في "تيو" بحماس، ولحست أسنانها الأمامية ببطء. في الغالب كان من المفترض أن تلك حركة لإغرائه. حررت نفسها من قبضة البولندي.

تظاهرت صاحبة المكان بعدم ملاحظة ما يدور حول "تيو" الذي لم يكترث بأمر العجوز الذي جلس يتمتم بشيء ما عن "ياني هالي" للقطرات المتبقية في كوزه من شرابه الكحولي.

عندما وقفت المرأة، ارتمى البولندي على الترابيزة.

في تلك اللحظة، دخل "ماتسون" الحانة وعبر الغرفة الصغيرة بخطوتين واسعتين، فنظرت له المرأة بإحباط، ثم نظرت إلى مرافقها الذي أشاح بيده في استسلام، وبدأت المرأة في إيقاظ البولندي بدلال.

وبابتسامة ذئب، قال "ماتسون" بصوت أجش:

- حسنًا.

ثم دفع العجوز إلى طرف المقعد، فقام العجوز برد الدفعة قبل ملاحظة أن مَنْ دفعه هو "ماتسون"، فخفض رأسه ثم أحنى كتفيه بنفس الطريقة التي ينحني بها الكلب خجلًا من سيده عندما يكون مخطئًا. "ماتسون" من النوعية التي لا يبدو عليها اللطف.

فاعترف "تيو" بشيء من الخجل:

- ليس ليّ أي شأن بك.

بعد أن ترك "سيسيليا" وحانة "قصر الحمراء"، توقف "تيو" للحظة في ميدان السوق. هبّت رياح قوية آتية من البحر، فشاهد "تيو" الأمواج المُتوَّجة بالزبد وهي تضرب الصخور في "كاتايانوكا"، وتوهم أن أكواخ الحي لن تحتمل العاصفة إذا فشل في الوقوف بجانبها وفرد ذراعيه

لحمايتها وتهدئة البحر القاسي. لم يشعر برغبة في العودة للمنزل، فهناك لا يتوقف عن التجول بين الغرف الفارغة، وهو يشعر بالرغبة الشديدة في "سيسيليا" التي تبدو بعيدة المنال بعد كل مرة يزورها فيها.

كانت السحب منخفضة، وكأنها تضغط على كل ما تحتها بقوةٍ صارمة، وبدت شبه الجزيرة التي تقع فيها البلدة وكأنها على حافة الإنهيار، حيث ستندفع المياه بقوة لتُغرِق ڤيلا "كاليولينا"، والمرصد، وبهدير مخيف ستُغرِق المياه كنيسة القديس "نيكولاس"، ومجلس الشيوخ. وستغوص الكاتدرائية الأرثوذكسية الجديدة في الأمواج، وسيجرف البحر مواخير "بونافوري" بسهولة، وستتفكك الألواح الخشبية الضعيفة وتصبح عصي تبعثرها الأمواج، وسيختفي "الجحيم الأخضر"، وستتبعه حانة "قصر الحمراء". ثم "سيسليا".

تخيل "تيو" الشعر الأحمر طافيًا في هذه الأعماق كنباتٍ مائي ملتوٍ، وتنورتها المنتفخة كرأس قناديل البحر، وجسدها الجميل المتيبس الذي سيتحرك بين السفن الغارقة عبر شبه جزيرة "هانكو" وجزر "أولاند" تجاه "ستوكهولم".

ولكنها لن تصل أبدًا إلى بيتها في "دالارنا". ستلتقط شباك الصيادين جسدها في إحدى الجزر الصخرية التي تضربها أمواج البحر. سيقوم

رجل بإخراج "سيسيليا" من المياه وسينظر إلى الحورية الميتة بتعبيرات الحيرة المنتشرة على وجهه الذي لوحته الشمس.

ذهب "تيو" إلى الحانة في "كاتايانوكا"، ثم شعر بالخطر وأرسل ابن صاحبة المكان ليبحث عن "ماتسون".

تساءل "ماتسون":

- إذًا ما السبب وراء كل هذا؟

- لقد أردت فقط.. أن أراك.

أجابه "ماتسون" وهو ينهض:

- للأسف لن أتمكن من البقاء هنا طويلًا، لديّ أمورًا شخصية أود مناقشة الدكتور فيها.

هدأت العاصفة، وربحت المدينة المعركة، ونجح البرج المثبت على قبة الكنيسة في أن يخترق السحب الكثيفة، التي سطع القمر من خلفها.

- لو كنت أنا الدكتور، لكنت جلست حول النار أشرب الخمر مع رجال متعلمين، بدلًا من قضاء وقتي في الحانات هنا.

- قلت أن لديك شيء لتقوله لي؟

- نعم، صحيح، لديّ.. امرأة. ليست قريبتي، ولكنني أخذتها من باب الإحسان، فهل بوسع الدكتور.. أن يفحصها للتأكد من أنها بخير؟ وأنها لا تعاني من أي...

- أمراض جنسية.

- بالضبط.

رأى "تيو" شفاه "ماتسون" وهي تنطق عبارة (أمراض جنسية) في الظلام.

- سأدفع لكَ بالطبع، ولكنني لا أملك المال حاليًا.

- حسنًا، إنني متأكد من أننا سنجد طريقة ما للدفع.

- ولكنني دفعت بالفعل، كلمة تحذير للدكتور، فهذا البحَّار البولندي سيكون محظوظًا إذا ما فاق على شاطيء البحر ووجد نفسه بلا أموال أو ملابس.

- لا أعتقد أنه قد تبقى معه أية نقود، وبدون ملابس سيموت من البرد، حتى لو بقي بملابسه سيموت أيضًا من البرد.

- وفي تلك الحالة، سيكون من الأفضل أن يستفيق في البحر، أو لا يستفيق على الإطلاق.

❄ ❄ ❄

قفز كلب صيد من خلف منزل على وشك الإنهيار وهو يجر قدمه المصابة خلفه. بدا مثل سيدته؛ مدينة "كاتايانوكا" بأكواخها المبنية على عجل والتي تميل في اتجاه مختلف كل مرة تهب الرياح. لم يكن الكوخ الحقير الذي يمتلكه "ماتسون" مختلفًا عن بقية الأكواخ.

نهضت الفتاة الجالسة على السرير بالداخل وانحنت للتحية. لم تبلغ العشرين بعد. أعطى "ماتسون" مصباحًا لــ"تيو"، وعلى الرغم من امتلاء وجهها بحب الشباب، إلا أن الفتاة بدت جذابة بعض الشيء لــ"تيو" في الضوء الخافت.

عندما طلب "تيو" من الفتاة بأن تخلع ملابسها، قامت برفع حافة فستانها الكتاني المتسخ إلى إبطيها ونامت، لم تكن ترتدي ملابس داخلية. باعد "تيو" بين ركبتيها، سعل "ماتسون" وقال إنه سينتظر بالخارج، أخذت الفتاة تُحدِّق في ألواح السقف الخشبية عندما جلس "تيو" على السرير، ثم رفع من نور الفانوس حتى يستطيع فحص ما بين ساقيّ الفتاة. كان شعر عانتها شاحبًا أو عديم اللون بعض الشيء. بقى وجه الفتاة على نفس الجدية بدون أي تعبير عندما دفع "تيو" إصبعه بداخل

فرجها. كانت فتحته ضيقة؛ ليست ذات خبرة كبيرة، وبدت سليمة من النظرة الأولى.

كانت ضفائر الفتاة ذهبية اللون كشعر عانتها. لم يستطع "تيو" مقاومة التربيت على شعرها. جفلت الفتاة، ولكن ليس خوفًا، بل بدت وكأنها ستذهب في النوم. حاول "تيو" الابتسام للفتاة متوددًا. لم يعلم مَنْ منهما كان ليشعر بالحرج أكثر من الآخر في هذا الموقف.

كان للفتاة منظرًا مثيرًا للاهتمام: باستطاعة "تيو" أن يراها كما يشاء. قبيحة، إذا أراد أن يفكر في أنّها قبيحة، وجميلة، إذا كان يبحث عن الجمال.

أخذ يحرك إصبعه جيئةً وذهابًا. كان يعرف أنَّها ليست مريضة بالفعل. لم يتغير تعبير وجهها، فهي لا ترى سوى أن "تيو" طبيبًا لا أكثر. بينما استمر هو في تكرار حركة إصبعه حتى تبلل فرجها، فأخرج "تيو" إصبعه ووضعه في المنطقة التي أخبرته "سيسيليا" عنها، فشعر وكأن شيئًا رخاميًا صغيرًا يلامس إصبعه، فأدار إصبعه عليها برفق، وسألها بماذا تشعر، محاولًا أن يبدو وكأنه يفحص ركبة مريضة عادية.

سأل "تيو" الفتاة عن اسمها. كانت تٌدعى "سارة"، سحب إصبعه، وأنزلت "سارة" فستانها فورًا، فنادى "تيو" على "ماتسون":

– إذًا؟

- إنّها على ما يرام.

أومأ "ماتسون" للفتاة، فحولت نظرها إلى "تيو"، وخلعت فستانها سريعًا، وأعلن "ماتسون" لـ"تيو" أنه حر في اختيار الطريقة التي يريد أن يحصل بها على أتعابه، فهو بنفسه مشغول بإنجاز بعض الأعمال بالخارج.

جلست "سارة" عارية على حافة السرير، بينما خلع "تيو" ملابسه وطواها ووضعها على منضدة صغيرة.

حرّك أصابعه على شفاه "سارة". كانت مُتشنِّجة ولكنها فتحت فمها بما فيه الكفاية لتُفهِم "تيو" بإنها على دراية بما يحدث، فدفعه في فمها بقوة: فبدأت تختنق وسحبت نفسها، وبتكرار المحاولة، أمسكت "سارة" بعضو "تيو" هذه المرة ووضعته في فمها، فلعقته وكأنه قطعة لحم وجدتها في طاجن لحم بالخضار.

ثم رقدت على ظهرها وفتحت ساقيها فاردة ركبتيها لتشكل بساقيها شكل حرف "V"، بينما هيأ "تيو" من وضعية جسده ليلج إليها.

ابتسمت لـ"تيو" خجلًا بأسنانها القذرة، وأدخل هو لسانه في فمها، فعضت "سارة" لسانه برفق.

لم يصبر "تيو" على إطالة المعاشرة، أو إخراج قضيبه، وقذف داخل فرجها، وعندما أخرجه منها، رأى ابتسامة غامضة تكسو وجهها.

في الخارج، جلس "تيو" على السلالم بجوار "ماتسون" وأشعل غليونه، فأعطاه "ماتسون" زجاجة مشروب كحولي، فتجرعها وقضب جبينه، وحاول "ماتسون" أن يداعب "تيو":

- يظهر الرجال بنفس الهيئة بعد السُكر أو الجماع.

أراد "ماتسون" أن يبدو مرحًا، ولكنه لم يستطع إخفاء التوتر في صوته.

❄ ❄ ❄

تعثَّر "تيو" خلف "ماتسون" الذي بدا له ككيان أسود يتمشى بين ظلال المنازل، وكشفت نوافذ قليلة عن أضواءٍ وحيدةٍ لامعة، ولكنها سريعًا ما تستسلم لعناق الليل المظلم.

توقَّف "ماتسون" عند الجسر، ففي "كاتايانوكا" يُعامل "تيو" كأب عطوف يربي ولدًا لم يبلغ مبلغ الرجال بعد ولكنه يحتاج أن يعرف قليلًا

عن الحياة، أمَّا على الجانب الآخر من الجسر، حيث البيوت المبنية بالحجر، يُعامل "تيو" على أنه رجل نبيل، ويُلقّب بالدكتور، ويشعر حينها "ماتسون" بحاجةٍ مُلحّة عليه بأن يخلع قبعته تحية وإجلالًا لـ"تيو".

❄ ❄ ❄

بمجرد عبور الجسر، استدار "تيو" لينظر خلفه، آه يا عاهرات ومتشردي "كاتايانوكا"، إنكم تتشبثون في هذا العالم بأظافركم المتآكلة.



كتاب "متالينا"



لون الموت أبيض. في الجنازات، يرتدي الأحياء، اللون الأسود، وحتى المتوفي يرتدي الأسود، لأنها أفضل ملابس امتلكها عندما كان حيًا، لكن وجهه دائمًا أبيض. عندما تترك الروح الإنسان، يبقى البياض فقط.

بدأ اللون يتلاشى من وجه "يوهاني". اختفى اللون الأحمر أولًا، لون الدم، والذي تحوَّل إلى الصفرة، ثم اختفى اللون الأصفر أيضًا تاركًا اللون الرمادي الذي يتلاشى الآن تدريجيًا ليتحول إلى الأبيض.

مد "يوهاني" يده، وخرج صوت عميق متحشرج من فمه الفاغر. حاول أن يقول شيئًا ما ولكن "ماريا" أشاحت بوجهها عنه تجاه النافذة،

التي تغطي زجاجها زهور ثلجية قبيحة تسخر من المرج الصيفي: براعم الموت، بينما انتشر الصقيع انتشار العُشب البري على حواف النافذة الملتصقة بالحائط، بينما كان حال الباب أسوأ: حيث اندفع الثلج بين الشقوق مكونًا أشكالًا تشبه جثة تنحني لتستقر في الكوخ.

وضعت "ماريا" "يوهو" على المقعد ودثّرت الطفل بالبطانية، ثم عبرت الغرفة الصغيرة واقتربت أكثر من وجه زوجها. تقلصت وجنتا "يوهاني" الذي غطت وجهه لحية قصيرة غير مهذبة بدت كالحشائش القصيرة التي جمدها الصقيع. بينما بدت عيناه كحفرتين على سطح بحيرة متجمدة خالية من الأسماك. لا يزال حيًا، يمكن معرفة هذا من صدره الذي يعلو ويهبط. كان يلهث بدون صوت.

- يا للمسيح، ماريا.. يا للمسيح.. أحتاج المساعدة..

- دائمًا ما تكثر الكلام عن المسيح.

"ماريا" تعود إلى الجانب الآخر من الغرفة وترفع "يوهو". بينما أضافت "متالينا" المزيد من الحطب إلى اللهب الضعيف. قالت لها "ماريا" بصوت مُرهَق:

- ضعيهم جميعهم.

– يجب علينا أن نقلل استهلاكنا للحطب، فربما لا نستطيع إحضار المزيد.

– لا فائدة.

ركعت "متالينا" بجانب أبيها وجسّت جبهته الساخنة. حاولت أن تُعدِّل من وضع البطانية، فأمسك أبوها بمعصمها وحاول أن يبتسم لها:

– ابنتي العزيزة، احضري ليّ شيئًا أشربه.

وقفت "متالينا" لتحضر مياه من القِدر الموضوع على الفرن، فقالت لها "ماريا":

– إنه مٌجمد.

نظرت "متالينا" إلى القِدر، فرأت كمية قليلة من المياه متجمدة في قاعه، وعندما أمالته تجاه الضوء وقرّبت وجهها منه، رأت صورتها منعكسة فيه، فأمرتها "ماريا":

– احضري بعض الثلج.

وتوقفت "متالينا" عند الباب قائلة:

– الشمس.

هدأت العاصفة للحظة. وأفسحت السحب للشمس التي أعطت الجليد المتجمِّع على زجاج الشباك لونًا فضي. ثمة شيء يذكِّر بالحياة يظهر في الغرفة، يقع ضوء الشمس على النافذة فتعكس أضلاعها شكل الصليب على الأرض.

عادت "متالينا" حاملة الثلج بيديها، أرادت وضعه في القِدر لتذيبه، ولكن "ماريا" أوقفتها:

– لا جدوى من ذلك، ضعيه مباشرة في فمه.

أخذت "متالينا" تمسح بعناية الثلج على شفتي أبيها المشققة، ببطء كأنها تطعم طفلًا صغيرًا قطع كعكة. خرجت من فم "يوهاني" حشرجة تشبه صوت قرقرة القطة.

جالت "ماريا" بنظرها في أرجاء الكوخ، عليهم الرحيل الآن قبل أن تعود العاصفة. أي تأخير لن يمَّكنهم حتى من الخروج سالمين من الكوخ، حيث سيسقطون من التعب قبل وصولهم إلى "ويلو ديرتش" وسيدفنون تحت الثلج. لا يخيفها الرحيل، ولكن فكرة العودة هي التي تخيفها، فهم بحاجة إلى الابتعاد قدر الإمكان عن تلك البقعة البائسة من الأرض. لم يتبقَ هنا سوى الموت.

أخرجت "ماريا" قشة من جانب فم "يوهو"، حيث نفذ "خبز اللحاء" منذ فترة، ولم تجرؤ على استخدام الطحالب الخضراء بعد أن

توفي "لوري بايولا" بسبب أكله لخبز مصنوع منها. كان ذلك في الصيف الماضي – في عام آخر غير هذا كان الناس يجمعون المحاصيل. قال مزارع من "لهتو" إن "لوري" مات بالتسمم. حيث قرأ في الجريدة أنه يجب أن تتم معالجة الطحالب الخضراء بشكل صحيح قبل إضافتها إلى الدقيق.

- "متالينا"، يجب أن نرحل.

- ولكن أبي لن يحتمل.

- يجب أن نتركه.

اعتصرت "متالينا" وجهها في البطانية التي تغطي بطن "يوهاني" وشهقت بالبكاء. نظر "يوهاني" إلى "ماريا" وحاول أن يقول شيئًا، فقامت "ماريا" إليه وانحنت لتتفحص وجه زوجها.

ما الذي يحاول قوله؟ عاد "يوهاني" يطلق حشرجة تشبه صوة قرقرة القطة، وأمسك بذراع "ماريا" ولم تحاول أن تتخلص من قبضته بل نظرت في عينيه بفضول، هل يطلب المساعدة، أم الرحمة، أم يحثَّها على الرحيل؟ هل يستوعب أي شيء مما يدور حولهم؟ أخذت "ماريا" تنظر وتنظر ولكنها لم تستطع فهم تعبيره.

ربطت شال الكنيسة حول أذني "يوهو" ولفت وشاحًا على صدره، ووضعت قبعة "يوهاني" الفرو على رأسها، ثم أخذت تجرب ارتدائها بعدة طرق واستقرت في النهاية على ارتدائها من الخلف للأمام، وقالت لـ"متالينا":

- ارتدي أي شيء تجديه.

ارتدت هي معطف المطر الأسود الخاص بـ"يوهاني". يبدو كملابس الجنازات، فـ"يوهاني" رجلٌ طويل. ارتدت قفازات "يوهاني" بينما أعطت قفازاتها لـ"متالينا"، وألبست "يوهو" قفازات "متالينا" على قفازاته التي يرتديها بالفعل، قالت "متالينا":

- يجب أن نحضر حطبًا لأبي.

نظرت "ماريا" إلى "يوهاني" وخرجت. اندفع الضوء في عينيها وأنفها وانطلق تحت ملابسها ودخل كل تجاويف جسدها. للحظة ملأ الفراغ الذي خلَّفه الجوع.

وقفت المرأة فاتحة ساقيها، تاركة الشمس تبعد الهواء البارد عن جسدها. ثم اجتازت الممر المغطى بالثلج لتصل إلى الحظيرة، مُعتقدة أنها

ستجد شيئًا ما تشعله هناك. لكنها لم تستطع الدخول، فأمسكت بجزءٍ من أحد ألواح الباب المتهالكة، وشدّته بكل ما في جسدها الضعيف من قوة، وأصدر مسمار صدئ صريرًا أثناء خلع اللوح، وسقطت "ماريا" على مؤخرتها، ولكن الثلج ضمن لها سقوطًا ناعمًا.

وفي الداخل أسندت اللوح على المقعد وركلته لتقسمه نصفين، بينما دلّكت "متالينا" يد "يوهاني" بقفازها، وأراح "يوهو" رأسه على جبهة أبيه. بدا منظر الطفل في هذه الوضعية مؤثرًا ومضحكًا في نفس الوقت، فامتلأت "ماريا" بالحزن، وشعرت بارتجافة في ذقنها، ولكنها سعلت وتركت دموعها تسقط في الفرن.

أخذت "متالينا" أخاها إلى الباب، بينما وضعت "ماريا" آخر قطعة خبز في يد "يوهاني"، ثم ملأت القِدر بالثلج ووضعته بجانب السرير في متناول زوجها، وهمست:

- هذا أقصى ما أستطيع فعله.

أمسك "يوهاني" بكتف "ماريا" وحاول عبثًا أن يرفع نفسه، وحشرج بشيء مبهم قبل السقوط على ظهره، فأزاحت "ماريا" يد "يوهاني" من على كتفها ووضعتها على صدره، قبّلت جبهته بقوة، ثم قبّلت شفتيه وأطالت تقبيله. تنفست بانسجام مع أنفاس زوجها للمرة الأخيرة.

❄ ❄ ❄

في الخارج، تعجبت "ماريا" من عدم حرقهم للزلاجة بسبب نقص الحطب، ولكنها شعرت بالامتنان لذلك. هبَّت رياح خفيفة دفعت بالثلج من على ألواح خشب حائط المنزل الرمادية، وانجرف الثلج ببطء من على العتبة، وكأنه يسعى لأكل شيء ما بالداخل. مرت السحب من أمام الشمس ولكنها لم تحجبها.

تشبث "يوهو" بظهر أمه، ووقفت "متالينا" على طرف الزلاجة. كانت القضبان أطول قليلًا من "ماريا"، وكان الباب مفتوحًا على مصراعيه مثل فم "يوهاني". منعت "ماريا" "متالينا" من العودة وإغلاقه قائلة:

– إنه أكثر رحمة هكذا.

❄ ❄ ❄

اندفعت رياح في الطريق إلى "ويلو ديرتش".

خففت الثلوج من انحدار الطريق. كانت الصفصافة مدفونة بالفعل في المياه المتجمدة، حيث برزت بعض الأغصان قاتمة اللون من تحت الغطاء الأبيض الخانق. تزلجت "ماريا" بحرص أثناء هبوطها المنحدر.

وبعد هبوطهم لأسفل المنحدر، تعثرت "متالينا" وسقطت بوجهها في الثلج. جاهدت لتنهض ولكنها انقلبت على ظهرها، ولم تجرؤ "ماريا" على رفع الفتاة خوفًا من سقوط "يوهو"، حيث استرخى الصبي على ظهر أمه، ولفّ ذراعيه حول عنقها، فمدت "ماريا" قضيب التزلج لـ"متالينا" ليساعدها على النهوض.

ساء حال الطفلة. فكرت "ماريا" في أنه إذا ما كانوا أي شخص آخر – "يوهاني" مثلًا – لكان من الرحمة ضربهما بقضيب التزلج على جبهتهما. عدلت "متالينا" قدمها، وترنحت على طرفي الزلاجة، فخرجت الكلمات من فم "ماريا" رغمًا عنها:

– التضحية بشخص آخر، لزيادة المعاناة.

ألصقت "متالينا" نفسها بظهر أمها، وتوقفوا جميعًا للحظة يستقبلون العاصفة الثلجية بدون حراك في الممر الثلجي. شعرت "ماريا" بأنَّها تريد الإستسلام والسقوط على الثلج، لكنها استجمعت قوتها وأرغمت نفسها على مواصلة السير.

تذكرت غاضبة كيف كان "يوهاني" يرفض الطعام ويعطي كل شيءٍ لها وللطفلين. كان غبيًا، يجب على الرجل أن يعتني بنفسه حتى يستطيع تحمُّل مسؤولية أسرته. كان من الممكن أن تبقى هي والطفلان على قيد الحياة باستهلاكهما القليل، ولكنهم الآن قد لا ينجون من الشتاء في "كوربلا" بدون "يوهاني".

لم يفعل "يوهاني" هذا لأنه كريم، بل لأنه جبان.

بعد ابتعادهم عن النهر بفترة صغيرة، رأوا "لهتوفارا"، حيث تقع مزرعة "لهتو" في الجانب الآخر من التل، ومن قمة التل رأوا برج الكنيسة بارزًا من الأرض البيضاء مثل غصن صفصافة وحيد يبرز على حافة الحفرة.

يتوسط برميل الغرفة الرئيسية لكوخ "لهتو"، بينما يجلس المزارع على الترابيزة شابكًا يديه ينظر إلى الوافدين بريبة، سألهم:

- إذًا اضطررتم لترك "كوربلا" لكي تتسولوا؟

- إن أمكننا فقط البيات لليلة واحدة، وسنواصل رحلتنا في الصباح.

- كيف حال "يوهاني"؟

- لم يعد موجودًا.

خفض "لهتو" رأسه ناظرًا ليديه. دمعت عيناه، ونظر إلى خارج النافذة، ثم إلى النيران المشتعلة بالموقد. خرجت زوجته من حجرة النوم واندفعت لتعانق "ماريا". بينما اتجه الطفلان خجلًا تجاه البرميل، قال "لهتو":

- يحتوي البرميل على قطران، حتى لا يدخل المرض منزلنا، فالقطران يُبعد الأمراض.

بدأت زوجته في خلع معاطف الأطفال، وعندما رأت وجه "متالينا"، صرخت:

- أبانا الذي في السماء! سأعد لكِ عصيدة حالًا.

حذرهم المزارع من الإفراط في تناول الطعام، لأن المعدة الجائعة لا يمكنها تحمل الإفراط في الطعام. تأملت "ماريا" الحجرة الرئيسية لكوخ عائلة "لهتو"، حيث بدا كل شيء نظيفًا ومرتبًا مقارنة بـ"كوربلا". بثَّت النيران ضوءً دافئًا ومريحًا.

- هل فارقت الروح "يوهاني"؟

- لقد فقد روحه منذ زمن بعيد. لقد ظل بكوخنا، يموت.

- أتركتوه وحده؟

- لم يعد قادرًا على المغادرة فما بالك بالبقاء على قيد الحياة. هل كان ينبغي لي أن أقتله؟

شاركتهما زوجة المزارع الحديث قائلة:

- يُقال إنهم يأكلون الجثث في بعض الأماكن.

فرمقها "لهتو" بنظرة غاضبة:

- تخاريف نسوة.

فهمس "يوهو":

- لن يأكل أحد أبي، أليس كذلك؟

- بالطبع لا، سيصعد أبوك للسماء.

- وماذا إن دخل أحدهم إليه وأكله؟

فهدأ "لهتو" من "يوهو":

- زوجتي العجوز تقول قصص رعب لا أكثر.



بعد أن أكلا العصيدة، نعس "يوهو" و"متالينا" على المقعد، بينما جلس "لهتو" على كرسيه الهزَّاز يحدِّق في النار. كانت "ماريا" تحدِّقُ في الظلام عبر النافذة، وعلى الجانب الآخر من الترابيزة، كانت زوجة المزارع تنظر إلى "ماريا". قال "لهتو":

- إنها أوقات صعبة، لم يعد أحد يستطيع التفرقة بين الصواب والخطأ.

سألتها زوجة المزارع:

- ألديكم أي مكان تذهبون إليه؟ أقارب في أي مكان؟

- آمل فقط أن نذهب إلى أي مكان به خبز ليس إلا.

فتنهد المزارع:

- قريبًا ستحتاجين للسفر لمسافة أبعد من "سان بطرسبرج". ولكنني لا أعرف إذا كنتِ حتى ستجدين خبزًا هناك.

قالت زوجته مقترحةً:

- بإمكانِك ترك أحد الطفلين لنا لنربيه، ليس لدينا المزيد من الخبز، ولكن باستطاعتنا إضافة شخص واحد لحضانتنا، ستكون الفتاة ذات عون كبير لنا.

أجابت "ماريا" بدون تفكير:

- لن أتخلى عن "ماتالينا".

ثم بدأت تبكي بهدوء:

- لا أعرف.. لا أعرف كيف ســ.. بدون "متالينا"، وحدي مع "يوهو".

فاقترح المزارع:

- اتركي الصبي.

- "يوهو"؟

- فلنفكر في "كوربلا" كمكان باستطاعة "يوهو" أن يمتلكه فيما بعد، أو مكان تستطيعين العودة إليه طبعًا، فليس من الوارد ألا تعودي..

- لا أعتقد أننا سوف نعود إلى "كوربلا".

- فكري بالأمر جيدًا، سنعتني جيدًا بالصبي.

قالت زوجة المزارع أنها متأكدة من أن "ماريا" والطفلين سيقضون عيد الميلاد القادم معًا في "كوربلا"، وشعرت "ماريا" من حماستها المفرطة بأن أسرة "لهتو" لا يصدقون بأنها ستنجو هي والطفلان من

رحلة التسول، فتمنت ليلة سعيدة للزوجين، وذهبت إلى الأريكة المجاورة للباب ونامت على جنبها، وفي الخارج بدا صوت العاصفة كعواء قطيع ذئاب جائع. حدَّقت "ماريا" في برميل القطران، ثم راحت في النوم.

❄ ❄ ❄

حلّ الربيع. نظَّف "يوهاني" القطران المتعلق بالزلاجات، ثم أخذ القطران ووضعه في برميل بداخل الكوخ. إنه نائم على المقعد. تقف "ماريا" على عتبة الباب وتراقب الطفلين وهما يقطفان الزهور. "ماتالينا" ترتدي ثوب الحداد الخاص بزوجة "لهتو". بينما يرتدي "يوهو" نفس الملابس التي يرتديها المزارع. فجأة، يشير "يوهو" إلى بعض البجع الطائر في السماء.

- انظروا، إنه أبي.

هذا مستحيل، تنظر "ماريا" إلى أعلى، وتدرك أن أول بجعة هي بالفعل "يوهاني". تستدير لتنظر داخل الكوخ. إنه "يوهو" الراقد على المقعد، مادًا يده لأمه. حدقتا عيناه بيضاوان كالعجائز. وجهه متغضن شاحب. وهناك دوَّامة من الثلوج ترتفع من البرميل.

تستدير "ماريا" لتنظر إلى الخارج. اختفت الأوراق من الشوارع، والعشب يذبل. تقف "ماتالينا" وحدها في منتصف الباحة، تتحدث بصوت "يوهو". تحاول "ماريا" الدخول بسرعة إلى الكوخ لتنقذ "يوهو"، ولكن المسافة إلى الباب تتسع وتتسع. تشعر "ماريا" بالشتاء وهو يخرج من الغابة المظلمة متجهًا ناحية كابينتهم. إنه ليس بعيدًا الآن.

تحاول "ماريا" أن تصرخ ولكن لا صوت يخرج منها. عاصفة تخرج من فمها، تغطي النافذ بالصقيع. فجأة، يبدأ الباب بالصراخ. في البداية هناك صوت حاد، صوت حيوان فزع، ثم صوت "ماتالينا" وهي تصيح:

- أمي، أمي!

❄ ❄ ❄

- أمي، أمي!

هزت "متالينا" أمها لتوقظها. أدركت "ماريا" بأنها لا تزال في منزل "لهتو" وبحثت عن "يوهو". كان جالسًا على المنضدة يأكل عصيدة رقيقة القوام بالملعقة، فأخذت "ماريا" تلهث وأسرعت زوجة المزارع لإحضار كوبًا من الماء لها.

قالت "ماريا" وهي تلهث، بعدما شربت المياه دفعةً واحدة:

- لن أترك أطفالي.

- زوجي يسرج الخيل، لن يستطيع إيصالكم لأبعد من الكنيسة.

جلست زوجة المزارع بجوار "ماريا"، وربتت على شعرها بخجل، فهمست "ماريا":

- لا أستطيع.

أومأت زوجة المزارع.

❄ ❄ ❄

أضلاع الحصان تشبه الأصابع المتشابكة للصلاة. صهيله شهقات عنيفة لامرأة عجوز. إنه ذابل، تمامًا كأبي، تفكر "ماتالينا"، ثم تهز رأسها. لا، إن أبي قوي، إنه يحضر أشجارًا كبيرة من الغابة على حصان "لهتو"، وعلى الرغم من وجود الكثير من الثلج الذي يمكن أن يصل إلى رقبتها. لكنها لا تغرق فيه؛ والدها يحملها بذراعيه إلى الكابينة. لن يأتي الشتاء إلى هنا. هناك طفل نائم في السلة المعلقة بحبل من العارضة المدقوقة بالسقف، و"متالينا" تهدهد الطفل وتغني "تب - تب - تبغ -

أوللا". هذه الأغنية تذكرها بـ"أوللا"، عشيقة "لهتو" السابقة، والتي اعتادت الجلوس على السلالم في الصيف تدخن الغليون كرجل عجوز. وعند وصول "متالينا" مع أبيها لمنزل "لهتو"، كانت تعرب "أوللا" عن اندهاشها لحلول وقت العمل، ثم يجلس "يوهاني" بجانبها ليشاهدا السحب وهي تمر في السماء، وتصفهم بأنهم قطيع غنم سماوي، ثم تسمح لـ"متالينا" بإحضار السكر من المطبخ.

لكن أمي تقول إن الكلمة في الأغنية هي "روللا"، وليست "أوللا".

"فوي ما" هو اسم الحصان الذي سحب العربة التي نقلت نعش المرأة العجوز إلى الكنيسة. وقفت "متالينا" وأمها يشاهدان العربة وهي تبتعد عن البيت. أمها تحمل "يوهو"، بينما يقود أبوها العربة و"لهتو" بجانبه يبكي، ولكن "متالينا" فكرت في الغنم المقدس والعشيقة العجوز التي ستجلس على حجر في حجم جبل ترعاهم وتدخن غليونها.

تنظر "متالينا" الآن إلى السماء الرمادية الشاحبة، لا أثر للخراف. تتوقف "فويما" عند مفترق الطرق، حيث يشكل الطريق فجوة في الثلج الفسيح، بينما تبرز عمدان السياج كأسنان صغيرة حادة.

يلقي "لهتو" نظرة خاطفة على "ماريا". فتهز رأسها:

- لا تأخذنا للكنيسة.

يشد "لهتو" اللجام وتبدأ "فوي ما" في جر الزلاجة باتجاه قرية مجاورة. أدركت "متالينا" أنهم لن يعودوا أبدًا لمنزلهم، فتركت الدموع أثرًا دافئًا على وجنتيها، ولكنها تجمدت قبل أن تصل إلى جانبي فمها.

لم يعد أباها في الوجود.

صهلت "فوي ما" بكمامتها المهتزة، وبدت رأسها أكبر مما كانت، حيث انكمش جسدها. ثم سمعوا صوت الثلج وهو يتكسر تحت قدمي الفرسة.

الأبرشية المجاورة أكبر من أبرشيتهم، فكنيستها أطول من كنيستهم. ينحدر الطريق بلطف تجاه ضفة النهر، ثم يعبر إلى الضفة الأخرى عن طريق جسر خشبي. هناك أناس كثيرون بالقرب من الكنيسة: متسولون، كما يبدو. وعبر الجسر رأت "متالينا" أطفالًا كثيرة في نفس عمرها، وعندما اقتربوا أكثر رأت القبعات والكوفيات التي تُخفي الوجوه البيضاء التي بدأت في الظهور. أدار "لهتو" الزَّلاجة باتجاه الطريق على طول ضفة النهر مبتعدًا عن الكنيسة وقال:

– سآخذكم إلى بيت القساوسة. سيعرفون ما يتوجب عليكم فعله. أمَّا أنا فلا أعرف.

فهمست "ماريا" وكأنَّها تحدث نفسها وليس "لهتو":

- سنذهب إلى "سان بطرسبرج".

- من الأفضل أن تنسي هذا، فلا أحد يعلم ما إذا كان الخروج من هنا ممكنًا على الإطلاق.

ظهر بيت أبيض كبير على ضفة النهر. توقعت "متالينا" أنه بيت القساوسة على الرغم من عدم مجيئها إلى هذا المكان من قبل، لوَّح "لهتو" إلى الرجل الملتحي. كان له حاجبان يغطيهما الثلج يشبهان حاجبي البومة. شعرت "متالينا" برغبة في الضحك والسخرية من ذاك العجوز الذي رد تحية "لهتو". فجأة، أمسك باللجام وأوقف الحصان:

- بالطبع أنت لم تأتِ بمتسولينك إلى هنا، أوه، لا، لم تفعل.

تجمدت ضحكة "متالينا"، والعجوز يحدق فيهم بعينيه اللتان يشبهان عيني البومة:

- اعتنوا بأنفسكم، فلدينا ما يكفينا هنا، ولسنا بحاجة إلى شحن المزيد من الإبراشيات المجاورة، حيث يأتي المزيد طوال الوقت من الجنوب، والشرق، والغرب. سنجعلهم يرحلون إن لم نفلح في إعادتهم إلى حيث جاءوا، لقد جاء أكثرهم من أماكن بعيدة، بالأمس تجمدت امرأة ومعها طفلها وماتا في طريقهما إلى هنا، لا تحضرهم إلى هنا، أوه، لا، لا تفعل.

تذمر "لهتو" واصطكت شفتاه غضبًا:

- إنني هنا لقضاء حاجة، لن ألق عليك بأحد، اللعنة.

تحركت "فوي ما" للأمام، وترك شبيه البومة ذاك اللجام، ولم يعد الحصان إلى طريق المنزل، ولكنه استمر في طريقه على طول النهر. ظل "لهتو" صامتًا، حيث كان يتمتم بشفتيه غاضبًا من وقت لآخر ويضرب "فوي ما" أحيانًا. أصبحت مشية الحصان أثقل ولم يستعد سرعته السابقة مرة أخرى، ثم اتسع النهر متحولًا إلى بحيرة، تتخللها بعض الصخور الضخمة، وفي قلبها يوجد قصر أكبر من بيت القساوسة، وانتهى الطريق عند الحديقة الأمامية للقصر الذي كان قصر ضيعة "فيكلوند".

كان هناك رجلاً أجيرًا يقف خارج القصر. حيَّاه "لهتو"، فرد تحيته بصوت ضعيف، ثم زمجر بأنه لن يُسمح بدخول المتسولين، فتخطاه "لهتو" وصعد السلالم، وتبعته "متالينا" ولكنها عادت عندما لاحظت أن أمها و"يوهو" لا زالا يقفان بجوار الزلاجة، واختفى الأجير أيضًا خلف الباب.

وبعد فترة، فتحت امرأة شابة الباب وأشارت إلى "ماريا" والطفلين بالدخول.

كانت الغرفة الكبيرة ناصعة البياض، حيث غطت الملاءات البيضاء المنضدة، وكان العجوز السيد "فيكلوند" جالسًا على كرسي هزاز يدخن غليون مصنوع من الخزف، فنظرت "متالينا" إلى سوالف الرجل الكثيفة.

كانت إحدى عينيه مغطاة بعُصابةٍ وهو ما أخافها، فتجنبت النظر إلى تلك العين الجامدة؛ فربما تنفجر منها البرودة وتقيد الطفلة الفضولية بشالها وتبقيها أسيرة هناك للأبد.

ولكن ابتسامة الإقطاعي لطيفة، وكذلك عينه السليمة التي نظر بها إلى "متالينا". أما العين الثلجية فكانت تحدق فيما خلفها، في شئ ما بعيد.

– يجب أن يخلع الضيوف معاطفهم، ستضع "إلا" شيئًا على الترابيزة.

"إلا"، التي أدخلتهم إلى القصر، انحنت ونظرت إلى "متالينا" بابتسامة ودودة، وعبرت الغرفة الكبيرة.

مشت "متالينا" على أطراف أصابعها إلى مرآة ذات إطار ذهبي، ومن وراء الزجاج رأت غرفة مطابقة للغرفة التي تنظر منها "متالينا" إلى نفسها. كانت هناك هالات سوداء تحت عينيها، وخطوط عميقة حول جانبي فمها، حيث بدا انعكاس "متالينا" في المرآة كامرأة عجوز ضئيلة، وهو ما أضحك "متالينا" الناظرة في المرآة، فهمست إلى صورتها المنعكسة في المرآة:

– إنني طفلة، وأنتِ امرأة عجوز.

ثم رأت "إلا" في المرآة، حاملة سلطانية كبيرة بيضاء.

وأخبر السيد العجوز "فيكلوند" "لهتو":

– نعاني أيضًا من نقص الغذاء، على الرغم من كوننا أغنى بيت في الإبراشية. اضطررنا إلى تقليل أعداد الخدم لأننا لم نحتمل إطعام المزيد من الأفواه.

وضعت "متالينا" طرف إصبعها في الشوربة. كانت بيضاء كالثلج ولكنها دافئة، وكانت الزهرة الوردية ذات البتلات ذهبية الأحرف هي أجمل شيء بالسلطانية، فمررت إصبعها فوق الزهرة التي بدت حية، قلبها ينبض ويزدهر بين الثلج. قلبها الذي لم يهزمه شيء بما فيه الشتاء.

رفعت "إلا" غطاء السلطانية فخرجت سحابة من البخار، ووُضع وعاء من الخزف مرسوم عليه زهرة مماثلة لتلك المرسومة على السلطانية أمام "متالينا"، وضعت "إلا" بعض الحساء في الطبق، بينما ظلت "متالينا" تحدق في الزهرة.

❄ ❄ ❄

في الصباح، أعطى "لهتو" ورقة نقدية إلى "فيكلوند"، وودَّع "ماريا" سريعًا، وربّت على رأس "يوهو" و"متالينا" ثم خرج. رأت "متالينا" عبر النافذة زلاجة "لهتو" وهي تترك حديقة المنزل وتسير على الطريق الضيق خارجة من شبه الجزيرة، متجهة إلى ضفة النهر تتعثر لفترة طويلة

ويتضاءل حجمها كلما هرولت "فوي ما". احتضنت "إلا" "متالينا" وتمنت الفتاة أن يبقوا في منزل الإقطاعي.

لن تمِل أبدًا من الإعجاب بالزهرة الوردية أثناء مواعيد الطعام، وستذكرها رؤية الزهرة بأبيها، فهو سعيد من أجلهم، ولكنه لن يأتيَ إلى "فيكلوند"، فهو جالس على حافة سحابة، وعندما تمطر السماء في الصيف ستنظر عبر النافذة وترى المياه تقطر على الزجاج، وستعرف أنَّها دموع فرح أبيها تسقط على الأرض.

ولكن "إلا" أنزلت "متالينا" عند الباب بجوار "يوهو" ولفَّت الوشاح بإحكام حول رأسها، ففهمت "متالينا" أنه قد حان وقت رحيلهم.

دخل الأجير الذي كره السماح لهم بالدخول بالأمس، ونفض قفازيه ببعضهما في غضب على الرغم من عدم تعلق الثلوج بهما، وألقى بنظرة طويلة على "ماريا" و"متالينا" و"يوهو" كلاً على حدة، وأوحت عيناه بازدراءٍ بارد. لم تجرؤ "متالينا" على النظر إليه، كما حدقت "ماريا" أيضًا في الأرضية، نظر "يوهو" وحده إلى عيني الرجل. كانت نظرة الصبي فارغة. استسلم الرجل في النهاية، وطافت عيناه في ألواح سقف البهو الخشبية غير النهائية. عادت "إلا" من المطبخ وسلمت "ماريا" رغيفين خاليين من لحاء الخشب.

❄ ❄ ❄

سدّ الثلج الطريق، وانغرست قدم الحصان فيه. مدّت "متالينا" يدها من جانب الزلاجة وغرفت بعضًا منه. ذاب في فمها، فشعرت وكأنه نسيم الربيع ينعش لسانها. ولكن بقي لسانها كالحقل الجاف الذي غطته الثلوج. قامت "متالينا" بتمرير بعض الثلج إلى "يوهو"، وأخذت "ماريا" حفنة من الثلج أيضًا، فالتفت الأجير محذرًا:

- إذا سقط أحدكم، فلن أتوقف لأجله.

توقفت "ماريا" عن أكل الثلج، ولكن بعد فترة مدّت "متالينا" يدها من جانب الزلاجة مرة أخرى أكثر من اللازم، فأمسكت "ماريا" بطرف معطف الفتاة.

كانت الرحلة طويلة بطول تحديق الرجل الأجير في الطريق الثلجي الممتد أمامهم. وصلوا في النهاية إلى بنسيون. لا توجد أي منازل على مرمى البصر، التفت الأجير فجأة إليهم ومزق معطف "ماريا" الشتوي وانتزع الرغيفين الذي أعطاهم "فيكلوند" لها من صدرها:

- هناك آخرون يتضورون جوعًا، لا يشتري لهم الأسياد خبزًا. وهم أحق بالخبز منكم.

وقسّم أحد الرغيفين إلى نصفين، وقذف بنصف منهما إلى حضن "ماريا"، ثم قفز من مقعده ودخل البنسيون.

عندما دخلت "ماريا" والطفلين إلى البنسيون، كان الأجير يدردش مع صاحبه حول حمولة من القمح، ونظر إليهما بريبة وكأنه لم يرهم من قبل وصاح:

- متشردون، ليسوا من تلك النواحي.

فقال له صاحب المكان:

- دعهم يذهبون إلى حجرة الانتظار.

❄ ❄ ❄

عندما استيقظت "ماريا" و"متالينا" كان رجل "فيكلوند" قد اختفى، فحملت "ماريا" "يوهو" النائم وخرجت، ثم قالت بحسرة:

- ليتنا احتفظنا بالزلاجة.

كانت هناك زلاجتان بالفناء، حيث حضر شاب قسيس بالأمس على واحدة منهما. لا يزال نائمًا في حجرة الانتظار، بينما يسرج سائق البنسيون حصانًا بالزلاجة الأخرى، فسألته "ماريا":

- إلى أين أنت ذاهب؟

لم يجبها السائق، بدا وكأنه لم يسمعها، نظر فقط إلى مجموعة الشجيرات المقابلة من تحت رأس الحصان. حدَّقتْ "ماريا" في ظهر الرجل لوقتٍ طويل. وعندما فقدت الأمل في رده عليها، التفت الرجل وأجاب:

- إلى الشمال، لن أستطيع توصيل متسولين معي إلى أي مكان بسبب ذلك القس، كما أن صاحب البنسيون لن يقبل بهذا.

واكتسى وجهه بالشفقة والشعور بالذنب، فأوضحت له "ماريا":

- لن نذهب للشمال، فلقد أتينا منه.

- عليكِ الذهاب للجانب الآخر إذًا، سأركل هذا الصبي وأوقظه. باستطاعته التقاطكِ من على الطريق، وبالتالي لن يعرف صاحب البنسيون، يجب أن تختفي من الساحة قبل أن يتحرك الصبي.

حينها انفتح الباب، خرج القس إلى الفناء مرتديًا معطفًا سميكًا من الفرو وبصحبته صاحب البنسيون. كادت "متالينا" أن تضحك، حيث

بدت قبعة الفرو التي يرتديها القس كنبتة الهندباء البرية التي تشبه الخس، ولكن لونها بني وليس أبيض، فإذا ما نفضتها، سيتطاير منها زغب كثير وينتشر في الجرف الثلجي، وسيتبقى هيكل القبعة فقط على رأس القس، وسيقع الزغب خارج البنسيون، وفي الصيف ستنمو أزهار لها رؤوسٌ تُشبه رأس القسيس، ولونها أصفر، في كل أرجاء الفناء، وستتمايل مع النسيم.

لكن "متالينا" لم تجرؤ على نفخ قبعته، كما فشلت الريح التي تعوي عند الناصية في انتزاع الفرو من قبعة القس، زمجر صاحب البنسيون لـــ"ماريا":

- إذًا؟!

كان يأمرهم بالرحيل، فأنزلت "ماريا" "يوهو" على الأرض. أمسكت بيدي طفليها وبدأت في السير على طول الطريق الثلجي، فقال القس بحسرة:

- آه من تلك الأوقات، وآه على أولئك البشر، ياه لشدة اختبار الرب لإيمانهم الآن.

❄ ❄ ❄

ساروا لفترة طويلة. أوشك النهار على الانتهاء. ولم يظهر الشاب ولا الزلاجة. سارت "متالينا" خلف أمها، كانت تسير على الأثر الذي تركته قدما أمها على الثلج، بينما تمسك بمعطفها بإحكام لتحتمي به من العاصفة الثلجية. هي لم تسمع الصوت الذي تصدره معدتها ولكنها شعرت به.

الجوع مثل القطة الصغيرة المحبوسة في كيس، لا تتوقف عن خدشه بمخالبها الصغيرة التي تؤلمها، لكنها تستمر في الخدش حتى يصيبها الإرهاق فتظل ساكنة بقاع الكيس، ثم تستجمع قواها وتظل تخدش مرة ثانية. تريد أن تخرجها ولكنها تخدش بعنف بحيث لا تجرؤ على أن تمد يدك بداخل الكيس، ولا يكون أمامك أي خيار إلا أن تحمل الكيس كله إلى البحيرة وتلقيه داخل حفرة في الثلج.

اصطدمت "متالينا" بظهر "ماريا"، التي توقفت فجأة، وقد أحنى الثلج الثقيل حولهم أفرع شجر الصنوبر، فقالت "ماريا" بصوت ضعيف:

- إنها النهاية.

ولكن "متالينا" سمعت صهيل حصان على الطريق خلفها فجذبت كم أمها التي أنزلت "يوهو" ولوَّحت، ولكن الصبي الذي يقود الزلاجة لم يعرهم أدنى اهتمام وأكمل طريقه وهو ينظر أمامه، انهارت "ماريا" على ركبتيها وسقطت على الثلج. ارتعش جسدها ببطء، وهي تبكي بشدة.

حاولت "متالينا" أن تسحب أمها:

- لقد توقف عند المنعطف هناك.

فنهضت "ماريا" ورأت الزلاجة، ورأت الصبي لازال يحدق أمامه، فرفعت "يوهو" واستجمعت كل قواها، وبدأت تخطو تجاه الزلاجة بخطوات واسعة.

بمجرد ركوبهم، ألقى عليهم الصبي نظرة واحدة من فوق كتفه. كانت إحدى عينيه مماثلة لعين المزارع القديم بضيعة "فيكلوند". لم يقل شيئًا بل أصدر صوتًا بشفتيه ليبدأ الحصان المشي.

جعلت حركة الزلاجة "يوهو" ينام، بينما توقفت العاصفة الثلجية. غطَّت العاصفة الثلجية الحقل بطبقة من الثلج الذي ظل يغطينا كذلك. أضاء النجم الأول، ثم غطَّت السحب الرمادية القمر.

استيقظوا في الكابينة المهجورة الذي تركهم فيها فتى البنسيون في الليلة السابقة، حيث تقع بحيرة على بُعد نصف ساعة مشي، كما قال لهم، ويوجد خلفها منزل.

هناك طريق ثلجي يشق طريقه عبر البحيرة، ولكن الثلج تساقط هنا أيضًا. ومع كل خطوة، كانت "متالينا" تغوص أكثر في الثلج الذي وصل

لوسطها تقريبًا، على الرغم من أنها كانت تسير على خطوات أمها. الخوض عبر الثلج أمر صعب. أغلقت "متالينا" عينيها وفكرت في أبيها، وتذكرت آخر رحلاتها معه بالقارب في البحيرة.

كان الأب هادئًا، مهيبًا، كهيئته عندما وضع نعش "ويلو- لوري" في قاربه وجدّف به إلى الكنيسة. فكَّرتْ "متالينا" حينها أن أباها بدا وسيمًا وهو يتحرك بالقارب الثقيل عبر البحيرة بضربات طويلة وثابتة، ولكن بعد قليل هبّت عاصفة، وخلعت قبعة الأب تقريبًا، فشدَّها وأخفضها حتى انحنت أذنيه تحت حافتها، وحاولت الريح أن تثني القارب عن مساره، وجاهد الأب ليبقيها في مسارها وعلى وجهه تعبيرٌ وقور.

كان نعش "لوري" صغيرًا، كيف استطاعوا إدخال جسد الرجل الضخم بداخله؟ هل رقد بداخله منحنيًا بنفس الطريقة التي تنام بها "متالينا" في الليالي الباردة؟ قالت لها أمها إن الناس ينكمشون عند الموت، حيث يتركهم شيء ما، ولكن حتى الأم لا تعرف ما إن كان هذا الشيء هو الروح، وإذا كانت الروح هي الشئ الذي يتركهم فعلاً، فهل تطفو الروح مثل البخار الذي يخرج من قدر الطعام الذي يغلي، أم أنها تتدفق إلى أسفل كسائل أسود لزج.

ربما لكل إنسان روح تختلف عن أرواح الآخرين.

تذكرت "متالينا" "كالي الأسود"، الذي وجدوه ميتًا داخل كوخه. لم يذهب أحد إليه إلا "ماريا" التي كانت تربطها علاقة قرابة به، و"روبي" الإسكافي، وهو الذي وجد جثة "كالي" وأحضر "ماريا"، التي أخذت "متالينا" معها. لاتزال "متالينا" ترتجف كلما تذكرت رائحة الموت. كان هناك بركة سوداء صغيرة أسفل "كالي". لم يكن دمًا، ولكنها مياه متسربة من جثته، كما قال"روبي".

لم يخلف "لوري" بركة ما، على الرغم من أنهم قالوا بأنهم وجدوا فمه أسودًا من أثر السم كما قال الأب، ولكن "متالينا" تساءلت إذا ما كان في استطاعة الروح الهروب من خلال الفم وترك لونًا خلفها.

قال "روبي" إنه لا وجود للروح داخل أجساد البشر، حيث توجد الدماء ومياه سوداء وحسب، والتي تتدفق حول الجثة قبل نفادهما، ثم يتصلب الجسد، فالإنسان نتيجة مائين، ماء الرجل وماء المرأة، وسألت "متالينا" عن كيفية حدوث هذا، وأوضح "روبي" أن الرجل يقذف ماءه إلى ماء المرأة، وهكذا يتم خلق شخص جديد، ولكن الأم منعت "روبي" من قول تلك الأشياء في وجود الأطفال، على الرغم من أنها أيضًا سألته: أيهما يحمل الدم وأيهما يحمل السائل الأسود.

ثم استعادت "متالينا" ذكرياتها بالجلوس مرة أخرى مع أبيها في القارب، ولكنها كانت قد عبرت البحيرة في تلك اللحظة.

لهثت الأم وهي تقول:

– من المفترض أن يكون المنزل خلف هذا التل.

نظرت "متالينا" خلفها، فلم تر أية أثر لأبيها، فقط رأت البحيرة المفتوحة أمامها مغطاة بالثلج، حيث جدَّف الأب مبتعدًا عن المشهد، واختفى في البياض.

❄ ❄ ❄

فجأة، سطعت الشمس في الأفق من خلف ستار السحب. حينها فقط تمكنت "متالينا" من رؤية المنزل وأجنحته الخارجية، والتي توهجت بعدما سقطت عليها أشعة الشمس التي أوقفت العاصفة الثلجية. سقط "يوهو" من بين ذراعي "ماريا" وبقي جالسًا على الثلجي. حاولت "متالينا" أن توقفه. فنهض الصبي في نفس الوقت الذي سقطت فيه "متالينا".

حدقت "ماريا" في الهياكل الرمادية المعلقة على حائط الحظيرة الرمادي، ثم استوعبت فجأة ما هم، فقالت:

- رؤوس سمك الـ"كراكي".

كان الجليد ملتصق برؤوس سمك "الكراكي" فبدَتْ تعبيراتها غريبة، بينما تسببت أشعة الشمس في جعل عينها الزجاجية تشع بشكل غريب. رأت "ماتالينا" جسدًا يقترب منهم؛ وفي نفس الوقت تحوَّل كل شيء إلى اللون الأحمر.

❄ ❄ ❄

تساقطت قطرات ماء صغيرة من جانب فمها. تسترد وعيها وهي تشعر بيدٍ دافئة تسند رقبتها. للحظة كانت ألواح السقف الرمادية فوقها تهتز، ثم استقرت. ظهر وجه نحيف لامرأة، والتفتت "متالينا" لترى أمها و"يوهو" جالسين على المقعد بجانب الباب.

ثم سمعت صوت رجل يقول:

- حضري عصيدة، واجعليها خفيفة للمُتسوِّلين.

- بالتأكيد يمكننا العثور على طعام حقيقي، على الأقل من أجل الأطفال. إنهم يبدون جائعين للغاية.

همست "ماريا":

- العصيدة جيدة، حتى وإن كانت خفيفة.

- يبدو الجميع جائعًا هذه الأيام، متى آخر مرة رأيتِ فيها شخصًا ممتلئًا باللحم بعض الشيء، باستثناء الوعاظ؟

فردت المرأة بحسم:

- عار عليك، ليس الوقت مناسبًا لهذا الكلام، متى كانت آخر مرة ذهبت فيها للكنيسة؟

غرفت العصيدة من القِدر في سلطانية خشبية، وكان "يوهو" قد جلس بالفعل على الترابيزة وبدأ في التهام العصيدة ذات اللون الرمادي، وانتظرت "متالينا" دورها. تناولت نصيبها عقب "يوهو" في نفس السلطانية. كانت لاتزال تأكل عندما نعس "يوهو" على المقعد بجانب الحائط.

قال الرجل:

- يمكنهم البقاء، فليس من عاداتنا هنا في "فارايارفي" أن ندع ضيوفنا يخرجون ليلًا، وخصوصًا لو كانوا نساءً وأطفالًا، ولكن عليكم أن ترحلوا في الصباح، سآخذكم إلى الكنيسة بالزَّلاجة، وسأرى إن كان هناك أي دقيق متبقي في الصومعة الشعبية لعابري السبيل.

أجابت "ماريا" بإيماءة، وأحضرت لها المرأة السلطانية، فتجرعتها "ماريا" قبل أن تحضر المرأة ملعقة لها، ثم نعست.

كان "يوهاني" يناديها.

❄ ❄ ❄

"يوهاني" كان طائرًا، طائر "الغواص". إنه الصيف، والخريف، والربيع، كل المواسم التي لا ينزل فيها الثلج. تتجوَّل "ماريا" في غابة صنوبر. ترى بُحيرةٍ تلمع من بين الأشجار، بمياهها السوداء، ولكنها لامعة. وعلى الرغم من أن "ماريا" تراها إلا أنها لا تستطيع الوصول إلى شاطيء البحيرة. فالأشجار لا تنفك تظهر أمامها فتضطر إلى تفاديهم. وأخيرًا تدرك أنّها تسير في الإتجاه الخاطئ.

لا تتعرف على الغابة، ولكنها تعرف تلك البركة. أخذها "يوهاني" إليها منذ عدة سنوات مضت. تسمع صوته ينادي:

- إيويي، إيويي، إيويي.

تحاول "ماريا" إيجاد طريقها إلى مصدر الصوت، ولكن الصدى انتشر في الغابة كلها وأصبح مصدره غير واضح. يطير "يوهاني" ويتركها وحيدة، ويهجر البركة. إذا رحل "يوهاني" فلن يُولد الطفلان.

وفجأة، تلتمع البركة السوداء أمامها. تبدأ "ماريا" بالركض ناحيتها وهي لا تحيد بنظرها عنها. ولكن أشعة الشمس الغاربة تعميها للحظة وبعدها لا تستطيع رؤية البحيرة. يأتي صوت "يوهاني من بعيد، من اتجاه آخر.

- إيويي، إيويي.

تتجمد "ماريا" في مكانها. تسمع صوت بكاء ونحيب أشباح الأطفال الذين ماتوا. الشتاء قريب. إنه يقترب، بدأت الزعابيب والعواصف بالفعل، إنه غاضب وغير هادئ، بداخل جمجة سمكة "الكراكي". قريبًا ستفتح الـ"كراكي" فكها. والصوت الذي يطلقه "يوهاني" يبتعد ويبتعد.

❄ ❄ ❄

استيقظت "متالينا" قبل الآخرين، ولكنها بقيت راقدة على المقعد تتطلع إلى الغرفة، التي انقلبت رأسًا على عقب؛ أصبح الحائط الذي به الباب هو الأرض، وأصبحت الأرض هي السقف، بينما استقر الفرن على السقف. سمعت الرجل يقول:

– لا تنسِ، اعطِ المُتسوّلين عصيدة، القليل من العصيدة.

ضحكت "متالينا" بهدوء، حيث رأت الرجل والمرأة وقد اتخذوا هيئة ذبابتين تجلسان على الحائط في الصيف. ثم جلست واستعادت الغرفة شكلها الطبيعي، فنظر إليها الرجل والمرأة التي تنهدت:

– طفلة مسكينة.

وأتى الرجل وجلس بجانب "متالينا":

– اسمي "رتريكي" وزوجتي "هيلتا"، ليس لدينا أبناء، حيث ماتوا منذ سنين، قبل سنين الجفاف تلك بفترة طويلة، ولكن ليس باستطاعتنا إطعامكم، وعمَّا قليل سيأتي متسولون جدد، فالناس بلا خبز، وفي حالة

تنقُّل دائمة، ومع ذلك لن تجدوا أي شيء في أي مكان آخر ترتحلون إليه، فأنتم تطاردون سرابًا، ولكن ليس باستطاعتكم فعل أي شيء آخر.

أومأت "متالينا" وطبطب "رتريكي" على رأسها، فاشتبكت بقفازه خصلات من شعرها.

وقف "رتريكي" وقال إنه سيذهب لتجهيز الزلاجة.

فقالت "هيلتا":

- لاتقلقي بشأن ما قاله ذاك الغول العجوز يا ابنتي، سنجد لكم شيئًا تأكلونه.

- اسمي "متالينا".

- اسم جميل، اسم مسيحي جميل، إنه جميل حقًا.

ملأت "هيلتا" السلطانية الخشبية التي تناولوا فيها غداءهم بالأمس. كانت العصيدة سميكة هذه المرة، وأحضرت أيضًا نصف رغيف من خبز اللحاء ووضعته على الترابيزة، وبعض أسماك "الراكي" المجففة ومزجتها بالعصيدة.

- كلي يا صغيرتي.

أكلت "متالينا". التهمت العصيدة قبل أن يدخل "رتريكي" ويأخذ السلطانية منها. أعطتها المرأة حليب مخفف بالمياه ساعدها على ابتلاع الخبز في غمضة عين، فأعادت "هيلتا" ملء السلطانية، وعندما عاد "رتريكي"، انتزعت "هيلتا" السلطانية الفارغة من "متالينا"، فابتسمت الفتاة لـ"هيلتا" التي امتلأت عيناها بالدموع.

استيقظ "يوهو" و"ماريا" على صوت غلق الباب، فأعدت لهما "هيلتا" القليل من العصيدة، وكسّرت فيها قطعًا صغيرة من خبز اللحاء وقدمتها لضيوفها الثلاثة، ثم نظرت إلى "رتريكي" وسلمتهم قطعًا صغيرة من سمك "الكراكي" المجفف، وظل "رتريكي" صامتًا.

وضع "يوهو" قطعة من سمك "الكراكي" في فمه، ثم أخرجها بأصابعه، ونظر إليها قليلاً. ثم وضعها مجددًا على لسانه، ثم أخرجها مجددًا واعتصرها بقبضته. راقبه "رتريكي" ثم ضحك:

- ستعودون إلى الطريق قريبًا، إلى أين أنتم ذاهبون؟

- "سان بطرسبرج".

"سان بطرسبرج"، حيث لم تستطع "ماريا" تخيُّل السماح لأي شخص بالتضور جوعًا في مدينة القيصر، فهناك خبز كافٍ لكل شخص في "سان بطرسبرج"، وليس فيها خبز لحاء أو نبتة الحزاز، ولا حتى خبز

القش، ولكنها بعيدة جدًا، ليست خلف التل القادم، أو حتى بعد القرية القادمة، إنها بعيدة، في روسيا.

تنهد "رتريكي":

- كيف ستتمكنون من الوصول إلى "سان بطرسبرج"؟

نظرت "ماريا" إلى الخارج عبر النافذة تتطلع إلى الزهور الثلجية. تلألأت الشمس من بين سُحب الثلج. نفس الشمس التي تتلألأ عند قصر القيصر في "سان بطرسبرج"، وقالت:

- سنذهب أولًا إلى هيلسنكي، وبعدها "سان بطرسبرج".

❄ ❄ ❄

ظلت "متالينا" تحدِّق أمامها في صمت. معدتها تؤلمها. بدأ الألم يقرصها أولًا، ثم شعرت وكأن هناك قطة غاضبة تخدشها، وتخربشها، وتغرس أسنانها في تجويف معدتها، ووصلت مخالبها إلى ضلوعها من الداخل وهرستها القطة بوحشيةٍ فجعلتها تتلوى، ثم خرجت العصيدة من

فمها وهي ممتزجة بالدماء. أصاب الصداع رأسها وكأنه إعصار لا يرحم جعل عينيها تدوران في محجريهما.

سقطت "متالينا" على الأرض.

أطلقت "ماريا" صرخة ملتاعة، كانت مكبوتة في البداية ولكنها قويت ببطء. كان "رتريكي" أول من أفاق من الصدمة. رفع "متالينا" من على الأرض وحملها إلى غرفة النوم، ووضعها على السرير.

احتضنت "ماريا" "يوهو" بقوة لدرجة أن الصبي كان يتنفس بصعوبة. فتح "رتريكي" جفني "متالينا"، ثم وضع أذنه بالقرب من فمها:

- إنها حية، لا تزال حية، لن تعيش طويلًا، ليس بمقدوري أن أعلم، احضروا ماء الآن بالله عليكم.

ملأت "هيلتا" كوبًا بالمياه وعادت بهدوء على أطراف أصابعها إلى غرفة النوم. جلست "ماريا" ترتعش على المقعد أمام الباب محتضنة "يوهو". حدقت في الغرفة بعينين جامدتين، لترى وجه "متالينا" الشاحب. نظر "يوهو" إلى أخته بفضولٍ خائف. سمعت "ماريا" صوت المزارع وزوجته الخافت.

- هل أصابها مرض؟

– لا أعتقد هذا. لقد عانت من الجوع لفترة طويلة فلم تستطع معدتها تحمل العصيدة.

– هل يجب أن آخذها إلى الطبيب؟ هل بإمكانه إنقاذها؟

خرج "رتريكي" من غرفة النوم وتوقف أمام "ماريا" للحظة مستغرقًا في التفكير، نظرت "ماريا" إلى الرجل الواقف أمامها وكأنها مذنبة وكأنه "القديس بيتر" عند باب الجنة يقول لها:

– لا يمكنكم الرحيل الآن، لن أجرؤ على أخذ الفتاة على الزلاجة، فلن تستطيع تحمل هذا.. سأحاول أن أحضر طبيبًا من القرية، على الرغم من أنه قد يكون مشغول جدًا لدرجة لا تسمح له بترك ما في يده والإتيان هنا من أجل متسولة، وهذا سيستغرق وقتًا، قد لا تعيش الفتاة فيه.

فانفجرت "هيلتا":

– لا تتصرف وكأنها ماتت بالفعل، اذهب وحسب.

– ليس هناك داعٍ لتزيين الأمر، ما سيحدث واضح.

صفع "رتريكي" الباب أثناء خروجه، ونظرت "ماريا" إلى "هيلتا" تبحث عن أي شيء فيه، حتى لو بصيص من الأمل، فحدقت "هيلتا" في

شفرة المنجل المعلقة فوق الباب حتى سمعت صوت انطلاق الزلاجة بالخارج، فقالت:

- ستكون بخير، مجرد مغص معوي.. لقد أصبحت نحيفة ولكنها فتاة قوية.

ومع ذلك كان صوتها يرتجف، وتطاير آخر بريق أمل لدى "ماريا"، فنهضت وهي تحتضن "يوهو" وذهبت إلى السرير حيث ترقد "متالينا". تبعتها "هيلتا"، ثم أخذت كأس المياه من على المنضدة المجاورة للسرير ورفعت رأس "متالينا" وصبّت بعضًا منه بحذر في فم الفتاة، سعلت "متالينا" فانسكبت المياه على ملابسها. جلست "ماريا" على حافة السرير وطلبت من "هيلتا" أن تحضر لها خرقة مبللة، وأخذت تطبطب برفق على وجه الفتاة.

وأخيرًا استفاقت "متالينا" لتشرب القليل من المياه، ولكن الماء لم يستقر في جوفها، حيث تقيأت على جانب السرير قبل أن تفقد الوعي مجددًا.

❄ ❄ ❄

حلّ المساء، واستعادت "متالينا" وعيها، وهذه المرة حاولت أن تتكلم، فنظرت إلى أمها وابتسمت ضاحكة:

- يقول أبي أنه أحضر بيض عيد الفصح. قال لي إنه من أجل أوزتي الصغيرة.

لاحظت "ماريا" أن تلك الضحكة آتية من مكان بعيد جدًا، وسرت برودة في جسدها. شعرت بشيء لم ترد أن تفهمه.

حينها انفتح الباب، فقفزت "هيلتا" واندفعت لتستقبل الوافدين، رجع "رتريكي" إلى باب غرفة النوم، وانحنى د."بيرج" على "متالينا" التي قالت لاهثة:

- أبي.. أبي.. أبي..

ثم أظلم كل شئ.

أغلق د."بيرج" عيني "متالينا"، وبدا مجهدًا. اعتقدت "ماريا" أنه عرف سبب شحوب "متالينا"، وارتجفت عندما وضع يده على كتفها وقال بلطف:

- ربما ذهبت لمكان أفضل.

أصابت القشعريرة معدتها، ثم انتقلت إلى جميع أجزاء جسدها، تحولت إلى حزن نحَّى كل شيء آخر جانبًا؛ الجوع والبرد والتعب، وملأ جسدها الأجوف بفراغ ثقيل لا يترك مكانًا لأي شيء آخر. بداخلها مستنقع مليء بالمياه السوداء الخالية من الحياة. طائر العين الذهبية طفى أمام

عينيها، ثم تحوَّل إلى بط بحري صغير يحاول أن يطير، ثم جمّدت عاصفة ثلجية كل شيء وسيطر الفراغ، واختفى الطائر، وبعد العاصفة، تحوَّل كل شيء إلى البياض، الموت. نهضت "ماريا" وذهبت إلى "يوهو" النائم على المقعد، رفعت رأسه إلى حضنها ونامت.

❄ ❄ ❄

أتى الصباح رماديًا. عبر "رتريكي" ود."بيرج" و"ماريا" الحظيرة إلى غرفة البخار حيث ترقد "متالينا" وحدها على المقعد. حاولت الريح أن تطير قبعة "يوهاني" القديمة التي ترتديها "ماريا". دخل "رتريكي" الغرفة.

وقف د."بيرج" عند الباب، ونظرت "ماريا" إلى معطفه الفضفاض. كان وجهه نحيلًا، ولكن ملابسه تدل على أنه كان أقوى في الماضي، لقد نقص وزنه. قالت لنفسها أن حتى الجنتلمان المهذب يتضور جوعًا، ولم تواسيها تلك الفكرة طويلًا: فإذا ما كان الخبز لا يكفي الأثرياء، فكيف سيكفي الفقراء؟

اختفى التفكير في الخبز والجوع عندما تنحى د."بيرج" جانبًا ورأت "متالينا"، فرجعت للوراء وتعثرت وسقطت على الثلج، فمدّ د."بيرج" يده إليها، وتطابق وجهه تمامًا مع وجه "يوهاني" قبل رحيلهم عنه.

❄ ❄ ❄

رُفع جثمان "متالينا" على الزلاجة، وجلس الطبيب في مقدمتها مع "رتريكي"، بينما جلست "ماريا" و"يوهو" بجانب "متالينا"، مص "رتريكي" شفتيه وهزّ اللجام، فانطلق الحصان، وبقيت "هيلتا" واقفة على السلالم. لم تلوح لهم، حيث أمسكت بوشاحها وشدّته حول رأسها، وأخذت "ماريا" و"هيلتا" تنظران إلى بعضهما البعض إلى أن هبطت الزلاجة المنحدر واختفى المنزل.

بقيت الشمس خلف ستار رمادي طوال الطريق. وصلوا إلى ساحة مفتوحة، وعلى حوافها شكلت الأشجار المغطاة بالثلوج ظلًا رماديًا وكأنه الحد الفاصل بين أرض الأحياء وأرض الأموات. لم تعد "ماريا" تثق في هذا الحد، حيث يتلاشى الظل، ويتلاشى حتى يشمل الصحراء البيضاء بين حدوده، ويصبح العالمان عالمًا واحدًا.

يقف في وسط الساحة بناءٌ متهالكٌ من الخشب الرمادي، يبدو وكأن الرياح ستطير به في أي لحظة. أدار "رتريكي" الزلاجة باتجاه الاسطبل، ورأت "ماريا" بعض المنازل المهجورة على بُعد، عند حافة الغابة.

نزل "رتريكي" من المزلاجة وفتح باب الاسطبل، فرأت "ماريا" أناس نائمين بالداخل، وقبل أن تبدي تعجبها من المنظر، أخبرها "رتريكي" بأن "متالينا" ستبقى هنا، وأضاف د."بيرج":

- هناك آخرون هنا في انتظار الدفن.

وعاد والتفت إلى "ماريا" ووعدها بأن الفتاة ستنال دفن لائق في الوقت المناسب، فبكت "ماريا":

- ستلقونها في مقبرة جماعية.

- بدون شك.

- لن يُحفر اسمها على الصليب.

حمل "بيرج" و"ريتريكي" "متالينا" إلى داخل الاسطبل على لوح خشبي، ولم ترد "ماريا" أن تنزل من على الزلاجة، فسألها "يوهو":

- إلى أين تذهب "متالينا"؟

- إلى أبيك.

- أريد أن أذهب للأسطبل، إلى أبي.

فضغطت "ماريا" يدها بلطف على فم "يوهو" وقالت:

-ستذهب "متالينا" إلى أبيك، ويبقى "يوهو" في صحبة أمه، وإلا ستصير ماما بمفردها.

عاد "رتريكي" و"بيرج" إلى الزلاجة وانطلقوا في طريقهم فورًا.

أخذت "ماريا" تحدق في الاسطبل الذي بدأ يتقلص، تفكر في ابنتها المتروكة هناك على لوح خشبي. لم تبكِ، فالحزن خفي كبيضة طائر "ذهبية العين" التي لم تجدها "ماريا".

هبّ الثلج في الساحة، أو داخل "ماريا".

❄ ❄ ❄

بعد فترة، توقفت الزلاجة، وقال د."بيرج" شيئًا ما لـ"ماريا" وصافحها، وأومأت برأسها. لم تلاحظ أنهم قد أنزلوا الطبيب أمام ڤيلا صغيرة إلا بعد أن عادت الزلاجة إلى الاهتزاز بفعل الحركة.

وهبط الطريق من بيت الطبيب إلى قرية. قادهم "رتريكي" إلى كنيسة ثم توقف أمامها:

– سأترككم هنا، وستكملون أنتم طريقكم من هنا بأنفسكم، لا أصدق أنكما ستصلان إلى "سان بطرسبرج"، من الأفضل أن تعودا من حيث أتيتما.

ثم ودعهما سريعًا وأصدر صوتًا بشفتيه ليتحرك حصانه.

نظرت "ماريا" إلى برج الكنيسة: ذلك البرج النحيل المتداعي الذي يشير للسماء متهمًا إياها. أمسكت "يوهو" من يديه وبدآ يمشيان بطول الطريق. توقفت عند آخر المنازل، فهي لا تعرف اسم القرية، أين هي؟ وأين رفات "متالينا"، لقد جلبت ابنتها إلى طي النسيان، حتى اسمها لم يُعرف أثناء حياتها.

حدقت "ماريا" في الطريق المهجور أمامها واحتضنت "يوهو" بشدة، ومرت عليهم مجموعة من المتسولين، فانضما إليها وسارا في آخر الطابور.



السيناتور



إنهم أشباح هذا الشتاء، تماثيل الثلج التي خلفتها الرياح على البحر الواسع المتجمد. لم تأتِ السفينة، بل جاء الشتاء بدون سابق إنذار، بين عشية وضحاها.

- لا فائدة من التشكيك في سلامة ضميري، إنني أعرف مَنْ هم، تلك الأشباح التي ساقتها الريح. أنا أيضًا دفنت طفلي.

شعر السيناتور بدفقة هواء باردة على وجهه، وكأنها رد على ما قاله.

لقد قضى اليوم السابق بأكمله يتصفح للكتاب المقدس يقرأ عن نبوءة "يوسف" بخصوص تلك البقرات السبع العجاف والبقرات السبع السِمان، وقد مرت سنوات نقص المحصول، سنة تلو الأخرى، ولكن لم تبد أية إشارة للبقرات السٍمان في الأفق، هل ذهب حديثه المتواصل عن غابات فنلندا الوافرة سدى؟ ألا يصلح هذا الشعب لشيء باستثناء تمزيق اللحاء من الشجر ليصنعوا الخبز؟

يجب أن ينظر أحدهم للأمام، لما هو وراء الأفق، من خلال تلك الأشباح الشاحبة. ففي نهاية الأمر، دائمًا ما يتعلق الأمر بالخبز، لو استطاع أحد أن يفهم ذلك، كما يفهم هو. لقد شكل الخميرة في حجم وشكل العملة النحاسية، لا ليتم أكلها لسد حالات الجوع الشديدة. لأنها إذا انتهت، فستنتهي للأبد. مهمته هي ضمان أن الخميرة ستبقى للأجيال القادمة، وبالتالي لن يكونوا في حاجة للاعتماد الدائم على الخبز الأجنبي.

حقيقة أنك لا تستطيع تحمُّل مسؤولية الوقوع في الخطأ دليلٌ على الوحدة التي يعيش فيها هذا العالم. فهناك الطبقة العليا، المتضايقة من جحافل المتسولين، والخائفة من اختلال حياتهم المريحة، ويدورون حول أنفسهم مثلما تطارد الكلاب ذيولها، سعيًا وراء المال والطعام من الدولة لينشروها على الطرق، وبالتالي سيهدأ جميع الفقراء المنتشرون في الطرق ويعودوا إلى منازلهم.

ثم هناك مَنْ يوافقونه لأنهم يوافقونه دائمًا، فليس باستطاعتهم التفكير بأنفسهم، وعليه أن يفكر لهم.

❄ ❄ ❄

اختفت مسيرة الموتى المتجمدين، ونظر السيناتور إلى "كاتايانوكا"، حيث تكمن صناعته للشامبو، سر ثروته، إنها كنز دفين لا يزال حاليًا محاطًا بتلك الأكواخ الحقيرة، ولا تزال تخفي أحلام الثراء المستقبلي.

أغلق السيناتور عينيه وتخيل "كاتايانوكا" غارقة يوم ما في الأمواج، ثم يتم غسلها وتنظيفها، لتطفو بمنازل حجرية شامخة تعانق السماء.



ديسمبر 1867



هنا يرقد الدكتور "يوهان بيرج".

كتل من التربة المتجمدة التصقت بغطاء النعش. وفي الأفق شنّ شريط أحمر شاحب حربًا بائسة ضد السماء الواسعة دفاعًا عن روح الرجل الميت. وفي النهاية، استُنفدت قواه، وحجبت السحب آشعة الشمس الأخيرة. ليزداد الظل على وجوه المشيعين ظلامًا، فقال "هيجفورش ماتياس":

- أراهن أن التُربي ظل يلعن وهو يحفر هذا القبر.

فأجاب "تيو":

– آمل فقط أن يبقى هذا الغطاء الخشبي في مكانه.

أوقفوا حفرهم للقبر وانتظروا حتى يلتقطوا أنفاسهم، بينما وقف المشيعون على حافة القبر بلا حراك مرتدين ملابس سوداء. بدأوا الآن في الابتعاد متجهين إلى بوابة المقبرة، بينما بقيت امرأة صغيرة انحنى ظهرها في حزن وبقيت على بُعد مسافة صغيرة خلفهما، اقترب الكاهن منها ووضع يده بلطف تحت مرفقها ليسندها.

رفع "هيجفورش" المزيد من التربة بمجرفته، فتسبب حجر ثقيل في سقوط حمولة المجرفة قبل أن تصل للقبر، اقترح "هيجفورش" متنهدًا:

– لنتركه هكذا.

غرس المجرفة في الأرض بجانب القبر، ولكنها لم تبق واقفة، حيث سقطت واصطدمت بالأرض الثلجية محدثة صوتًا مماثل لصوت تحطم الزجاج.

التقط "تيو" كتلة كبيرة وأخيرة من التربة الثلجية من الكومة المجاورة لهما ورماها في القبر.

أسفل برج الساعة يوجد ثلاثة صلبان معدنية مثل صلبان "جلجثة"، ولكن ليس هناك مَنْ هو مصلوب عليها. تجوَّل "تيو" بنظره إلى قمة البرج، وكأنه يتأكد من عدم تسلق "يسوع" واللصين لقمة البرج والاختباء به.

- هل تؤمن بالإله يا "تيو"؟

- لا، لا أؤمن أن لهذا الكرب والبؤس أي غرض، هذه هي الإجابة التي تريدها.

"ماتياس" أخبر "تيو" أن يفكر في "أيوب".

وفعل "تيو" هذا، حيث فكر بصوت عالٍ في كل الصعاليك الذين يضيعون في الطرق الثلجية، وفكر في "يوهان" الذي يرقد مختفيًا في ذلك النعش الساقط عليه الأحجار، ثم فكر في كل زوجات وأبناء "أيوب": تركهم الإله يموتون حتى يتلألأ إيمان "أيوب" أكثر.

- إنني أفكر فيهم جميعًا. أولئك الذين حاول "يوهان" إنقاذهم، ولكن بلا فائدة. لابد وأن تفكر في "أيوب" يا "ماتياس"، حتى لا يكون منسيًا من الجميع.

- إذا كان المقصود من وراء هذه المعاناة هو أن تكون امتحانًا، فمن إذن المستهدف منها؟ مَنْ الذي سيتأكد إيمانه خلال المعاناة من أولئك البشر؟ مَنْ منهم، "أيوب"؟ المتسولون؟ لا، الإله حمى "أيوب"؛ فقط المقربون منه هم من عانوا.

- أتساوي بين "أيوب" وبين أولئك البشر يا "ماتياس"؟ تلك الجحافل التي تتضور جوعًا بينما ننشد نحن: "اصنع رغيفك نصفه لحاء،

فلقد قضى الصقيع على غلة جيراننا". هل ذقت في عمرك خبز باللحاء؟ أنا لم أذقه. نحن لا ننتمي للشعب يا "ماتياس"، ولن نعبر الحواجز الفاصلة بيننا وبينهم، "يوهان" فقط هو مَنْ عبرها: حيث عاش وسط الناس ومات بنفس أمراضهم.

- ربما كان قدر هؤلاء البشر أن يقاتلوا من أجل البقاء وبالتالي يصبحون أكثر قوة.

ثم أكمل بعد لحظة تفكير:

- ولكن إن لم يكن الإله موجودًا كما تقول، فلن يكون هناك قدر، وسيخضع كل شيء للصدفة.

- وهل من الصدفة أن يتضور الفقراء جوعًا ويتسولون؟ هل قتلت الصدفة "يوهان" ونجتنا نحن؟

- ها أنت ذا لا تؤمن بالصدفة، إيمانك يخضع للاختبار، ربما تكون أنت "أيوب".

شعر "تيو" برغبة في ضرب "ماتياس"، فالشيء الوحيد الذي يمكن أن يأخذه الإله منه هو "سيسيليا"، فحب العاهرة هو الشيء الوحيد الذي يخضع له، أو بالتحديد حبه للعاهرة.

هو لا يتشبث بالحياة متسولاً من أجل الخبز، ولا يعرف حتى ما الذي يدفع كل تلك الجموع لقارعة الطريق، وكما يفعل - ما يُسمى - *رفيقه*. فبالنسبة لـ"تيو" هذا أمر يصعب التفسير، لغز عظيم، لغز الحياة الذي يُفهم فقط عن طريق الموت.

رفع "ماتياس هيجفورش" مجرفته، واتكأ عليها ونظر إلى القبر المفتوح.

رفع "تيو" قبعته الفرو، ومسح العرق من على جبينه بقفازه، وقال:

- أتعجب لماذا لم ننتظر الربيع؟

- عند الموت، فإنكَ تموت، لا يمكنك الانتظار حتى يتحسن الطقس.

- لا، إنني أقصد زوجته، لماذا لم تؤجل العزاء؟

- حسنًا، ربما لم يخطر على بالها أنه يوجد ربيع آخر سيأتي.

تدَّخل الكاهن في الحوار:

- هناك ربيع جديد دائمًا حتى بعد أشد فصول الشتاء.

ترك الكاهن السيدة "بيرج" تترنح وحدها وسط الثلج المتساقط، وأطال النظر داخل القبر وكأنه يتأكد من أن "تيو" و"ماتياس" لم يثقبا غطاء النعش أثناء حفرهما، فيتسببا في هرب روح الميت من الكاهن.

وهل سينمو العالم مجددًا؟

فأجاب الكاهن:

- بالضبط.

فأومأ بالموافقة:

- النعش سليم، وعليه تراب كافٍ ليغطيه. يتم تقديم القهوة في بيت القسيس.

أخبرهما الكاهن:

- أرادت مدام "بيرج" أن تدفن "يوهان" قبل رحيلها، لأنني سآخذها لتقضي الشتاء في "كوكولا"، فلم يعد لها شيء هنا، وهي لا تعرف حتى اللغة الفنلندية.

عند سور المقبرة، تقف أشجار عارية كصواعق البرق المجمدة أثناء محاولتها الاصطدام بالسماء من الأرض. ألقى "تيو" نظرة وداع على القبر ورأى مدام "بيرج" تضع حجرًا كبيرًا عليه بالمجرفة ذات اليد الطويلة، فعاد "ماتياس" وأخذ المجرفة من السيدة واستمر في ردم القبر، فوقفت منحنية وراقبت التراب وهو يملأ الحفرة.

أشار "تيو" إلى رجلين نحيلين يقفان عند بوابة المقبرة، وعرض عليهما أموالًا نقدية، فغرز الرجل الطويل الأموال في جيب بصدره، وشخر لزميله وقال:

- أخبرتك بأن هذا سيحدث، أليس كذلك؟

مدّ "ماتياس" ذراعه للسيدة "بيرج" وأخذها إلى البوابة.

نظر "تيو" إلى السماء، تمنى أن يرى إشارة من "يوهان" أو حتى من الإله، ولكنه وجد بساط رمادي يغطي السماء، فإذا كان الإله خلف هذا الستار فإنه لا ينظر إلى فنلندا، ولم يُبعث "يوهان" من قبره وإنما يرقد في النعش الخشبي، حيث تتساقط الأحجار على غطاءه محدثة صوتًا مماثلًا لإعلان أجراس الكنيسة عن نهاية الحياة، حيث يبقى فقط نوم سرمدي بلا أحلام.

هكذا يخلد "يوهان بيرج" للراحة، على الرغم من عدم وجود الصديق القديم في نفس المكان، إلا أن هناك شيء كان يومًا ما "يوهان بيرج". ضحكته المدوية التي كان يطلقها عندما يسكر على طاولته في حانة "الڤيلا الخضراء" منذ سنوات لا تزال تتردد في أذني "تيو" على الرغم من خفوتها.

وعندما يتوقف "تيو" عن سماعها، حينها لن يكون قد تبقى شيء من "يوهان".



عقب القهوة، أشعل "تيو" و"ماتياس" غليونهما بعد أن جلسا على فوتيهات مريحة، وبعث الفرن - المتواجد بردهة بيت القس - دفئًا أنساهما القبر الثلجي للحظة.

حكى "تيو" لـ"ماتياس" عن زيارته التي قام بها لكوخ صغير أثناء توجهه إلى هنا. بالكاد نظر إليه المزارع من تحت حواجبه الداكنة عندما دخل الكوخ.

حاول "تيو" أن يتحدث معه بلغته، وعندما فشل في تلقي رد، وضع ورقة نقدية على الترابيزة، فجالت نظرة الرجل في المحيط الفارغ باتجاهها، وعندما وصل إليها، نهض وأحضر صندوق خشبي من على سطح الفرن، ووضعه على الترابيزة وأخرج منه ثلاث أوراق نقدية مشابهة للورقة التي تركها "تيو"، ثم جلس وحدق في المال، وحشرج صوته أخيرًا:

- كُل ورقتك، وسآكل أنا ورقاتي.

كان "تيو" على وشك النهوض والرحيل، عندما ظهرت امرأة من جانب مظلم، وأحضرت سلطانية عصيدة، واختفى الرجل في نوبة غضب ولم يعد طوال فترة بقاء "تيو". أخذت المرأة تحرك يديها اعتذارًا وتمسك

بمريلتها بعصبية، ثم أخذت الأموال، ورقات زوجها والورقة التي وضعها "تيو" على المنضدة، ووضعتهم في الصندوق، وأرجعته في مخبئه، ثم التفتت لتواجه "تيو"، الذي لم يجلس بعد، وانحنت له، فانحنى لها وأخطأ وشكرها بالسويدية ورحل.

ضحك "ماتياس" من القصة كما لو كانت طرفة مرحة، وضحك "تيو" أيضًا بينه وبين نفسه من ذكرى الموقف، وعلى الرغم من كل ما حدث، أخذ يتساءل كيف سيشعران بالبؤس المحيط، إذا كانا يضحكان منه، فإذا ما شعرا بحق بما يحدث، فهل ستظل لديهما القدرة على الضحك؟

فبدلًا من أن ينظرا إلى الآخرين، وهو ما يجب عليهم فعله، ينظران إلى المرآة، انظر ها هو جارك خلقه الإله على صورته، فما تفعله له، تفعله للإله، وبالتالي اخدمه، وافعل أفضل ما تستطيع فعله.

وماذا عن "يوهان"، ما الذي حدث له؟ ذلك الدب صاحب الضحكة العالية التي تشبه الزئير، هل تحوَّل الآن إلى شبح كئيب وهزيل؟ هل لمس هذا الواقع "يوهان بيرج" بأصابعه الباردة وسلبه كل بهجته في الحياة؟

في آخر خطاباته إلى "تيو"، سرد "يوهان" ذكرياتهما أثناء سنوات الدراسة، مكررًا نفس الحكايات القديمة وكأنه يقنع نفسه بواقعيتها، وعلى الرغم من كل الذكريات المسلية، إلا أن الخطابات كانت كئيبة، أو قد يكون

بسبب تلك الحكايات تجلَّى التناقض لـ"يوهان" أثناء سرده للذكريات، ولاحظ أخيرًا أنها قد ضاعت الآن، هل خفتت روح "يوهان" بسبب ما كان يأمل في أن يكون هو الواقع؟ أم أن ما شاهده من واقع هو الذي أماته؟



كتاب ماريا



امتد السور الأصفر بطول الشارع. ومشت "ماريا" تحت نوافذه. كان المبنى الخشبي يبدو كالقلعة. وشكَّل الصقيع غطاء رقيق ولين فوق الدهان الأصفر ولكنه لم يستطع اختراق البيت الكبير.

قفز رجل من الزاوية أمام "ماريا" كأرنب بري خائف. كان بعينيه نفس التعبير الذي بدا في عيني "بيني" كلب "بايولا" عندما ضربه "لوري" بقسوة في نوبة سُكر غاضبة.

تعثرت "ماريا" والتصقت بالسور. وتأرجح "يوهو" كفرع شجرة في مهب الريح.

اختلت خطوات الرجل أثناء تفاديه لـ"ماريا"، ولكنه تفادى السقوط بسندة من يده، واستمر في عبور الشارع بنفس السرعة مهرولًا على قدميه ويديه. لحق به ثلاثة رجال يبدون كمُلاَّك الأراضي، من بينهم شخص يرتدي فروة ذئب. انتزع الرجل الزاحف على يديه وقدميه وجرّه بعنف، فقفز الهارب كحصان، ثم انزلق وهبط في معطفه، وطرحه الرجل ذو فرو الذئب أرضًا وكأنه قطة برية، بينما صاحت امرأة بشال أزرق أتت في أعقاب الرجال الثلاثة:

- حرامي، حرامي.

انتزع رجل صغير هزيل بشارب متدلٍ المعطف من اللص فتعرَّى نصفه.

نظر اللص إلى الرجل برعب، وألصق جبهته في الثلج وأخذ يلهث، وأحنى كتفيه وكأنه يتوقع ضربة، فأخرج الرجل كتلة من اللحم من داخل المعطف ورفعها معلنًا انتصاره ليراه الجميع، ثم ضرب اللص فجأة بكتلة اللحم على قفاه، فترنح اللص ورقد في مكانه، ليس بفعل الضربة ولكن لافتقاره أية قوة للمقاومة. أخذ الرجل يركله، بينما غطت "ماريا" عيني "يوهو".

رأت المرأة ذات الشال الأزرق "ماريا"، وأشارت إليها بإصبع طويل رفيع وصاحت:

- هناك مُتسوِّلة أخرى، سارقة لحم، عاهرة.

أمسكت "ماريا" بـ"يوهو" بشدة لتحميه، وحاول "يوهو" أن يبعد يد أمه، ليرى من بين أصابعها، فرأى اللص يستخدم يديه ليجر نفسه للأمام، وقطرات الدم تتساقط من فمه.

اتجه الرجال الثلاثة ناحية "ماريا"، حيث نظر إليها الرجل ذو الشارب قبل أن يلتفت ليرى الرجل المضروب وهو يزحف.

نظراتهم فارغة، باردة. فتحت المرأة ذات الشال فمها وأغلقته، ورأت "ماريا" أسنانها والنفس المتجمد الخارج من فمها مع كلماتها، ولكنها لم تسمع صوتها، وبدأت المدينة تلف حولها ببطء، واقترب منها الرجل الذي يرتدي فرو الذئب.

- دعوها وشأنها، معها طفل.

فتحت كلمات الرجل آذان "ماريا"، وسمعت أصوات المدينة بعد لحظة صم، حيث زأرت داخل فراغ رأسها، مسببة ألمًا متدفقًا خلف عينيها، ولكنها هدأت في النهاية واستقرت في أماكنها المناسبة. أخبرها الرجل بوجود تكيّة على الجانب الآخر من النهر، عند سفح التل الذي توجد عنده الكنيسة. يجب عليها أن تذهب إليه.

لم تستطع "ماريا" تحريك ساقيها، حيث نظرت إلى الاتجاه الذي أشار إليه الرجل، ثم إلى يديه، وأخيرًا نظرت إلى وجهه، وأدركت على الفور كيف بدت بلهاء، وبدأت ترتجف من التعب.

أخذ الرجل "يوهو" منها، فتنبهت "ماريا"، وحاولت أن توقفه ولكنها حركت يديها فقط باتجاهه.

– حسنًا، سآخذكما إلى هناك.

استغرقت "ماريا" لحظة لتفهم كلمات الرجل، فهدأت وتوقف جسدها عن الارتعاش. وقفت المرأة ذات الشال الأزرق بجانب الرجل، ونظرت بفضول إلى "يوهو" وقالت:

– يجب أن يأخذ السيد "جوستافسون" حذره، قد يكون الطفل مريضًا، بالتيفويد مثلًا.

– احتمال، من الممكن وجود تيفويد دائمًا.

التفت الرجل وبدأ يمشي، فمدّ "يوهو" يده تجاه أمه، فقال له "جوستافسون" آمرًا:

– اهدأ!

تبعت "ماريا" يدي "يوهو" الممتدتين داخل القفاز، وعند مفترق الطريق، نظرت إلى اللص الراقد على الأرض. كان الرجل ذو الشارب قد بدأ في الرحيل بالفعل متأبطًا كتلة اللحم. جرت المرأة ذات الشال الأزرق لتلحق به وبالرجل الذي معه، وعندما لحقت بهما بدأت تنظر إلى "ماريا" و"جوستافسون" وبدت وكأنها تشرح شيئًا ما. كانت تجذب كم الرجل ذو الشارب، ولكن الرجل كان مهتمًا بكتلة اللحم أكثر من أي شيء تقوله المرأة.

جذب اللص أنظار الفضوليين، وانطلقت ضحكات مكتومة من المارّة. رأتْ "ماريا" طفل صغير يلقي بروث حصان على اللص، واصطدم الروث المثلج بخد الرجل، فتعثرت "ماريا" كما لو كان الروث أُلقي على خدها هي، ولكن اللص لم يشعر بشيء، حيث كان يتنفس دمًا فقط، فقال "جوستافسون":

- اعتبري هذا درسٌ لكِ، هذا ما يحدث للصوص، ففي أوقات كتلك، لا أحد ينظر برفق لمن يسرق الطعام، فكلنا نعاني من نفس الجوع، إذا ما جاء المتسولون، نعطيهم ما في استطاعتنا، إن استطعنا، احذري.

لم تستطع "ماريا" رؤية وجه الرجل، وكأن فرو ذئب ميت هو ما يحدثها. لم تستطع تحديد إن كان صوته ودودًا أم عدائيًا. حاولت أن تجبر نفسها لتجيبه، حتى يستمر الرجل في الكلام. فمن الجيد لها أن تستمع إلى شخص آخر يتحدث، فعندما تجهد نفسها وتركز في الاستماع، تنسى البرودة والجوع للحظات. ولا يهم ما يقوله الشخص الآخر مادام

يخاطبها هي. ثم تذكرت أن هناك بشر آخرون في العالم، وأنهم لا يزالون يتحدثون إلى بعضهم البعض. وربما يكون هناك حوار يومًا ما عن أشياء أخرى غير الخبز، أو نقصه، أو الجوع والمرض.

سيتحدث الناس عن قدوم الربيع، وذوبان الثلوج. عن البجع الذي نراه في "البحيرة المقدسة"، عن الحقول المجاورة المغطاة بالفيضان، حيث تأخذ مياه الفيضان زلَّاجة "فيرنيري لينكولا" التي يجلس عليها كلبه "موستي" وكأنه قبطان سفينة تبحر بالمحيط متجهة لشواطيء بعيدة. قد يتحدثون عن "يوهاني" مصطحبًا "متالينا" إلى حافة المستنقع ليشاهدا طيور الكركي وهي تؤدي رقصة الربيع.

- وصلنا، بإمكانك طلب قطعة خبز من "هاكمان" حارس الكنيسة، على الرغم من أنه قد لا يملك شيئًا، ولكن عنده ماء لكما لتشربا، إنه يعيش بالأعلى هناك، بينما التكية في الأسفل باتجاه الحقول.

أنزل "جوستافسون" "يوهو" وبدأ العودة في طريق النهر بدون توديعهما. ظهر شاب من مخزن الحطب وأتى إلى "ماريا". كان يحتضن الحطب بقوة وكأنه طفل. رحَّب بـ"ماريا" و"يوهو" باسم الرب.

هذا هو "هاكمان"، حاول أن يبتسم، وكسا وجهه تعبيرٌ غبي به لطافة:

- ليس لدي خبز للأسف، أو ربما يكون لدي شيء للطفل، ولكن بإمكانكما بيات الليل خارج المنزل، أو ربما أترك لكما خبزي.. أقصد إنني لن أستطيع إيوائكما، فهذا ممنوع بسبب الأوبئة، ولكن هذا بالنسبة لمنزلي، يمكنكما الذهاب إلى التكية بالطبع كما قلت، وسآخذ هذا الحطب فيما بعد، أو لا، انتظرا هنا، سآخذ الحطب، وسنجد الخبز فيما بعد، وبهذه الطريقة سنتجنب المشاكل، حيث يجب أن يأخذ كل فرد قطعة خبز، ولكن لا يوجد ما يكفي.

هرول "هاكمان" إلى التكية، وبدا أن الحطب على وشك السقوط من بين ذراعيه. كان عليه أن يلوي نفسه حتى أصبحت مشيته مضحكة.

❄ ❄ ❄

السماء لونها كعيني ثعبان. أضاء أول نجم، فشعرت "ماريا" بأن الثعبان يراقبها هي و"يوهو"، فنظرت إلى الثعبان، تحدِّقُ في عينيه، ولكنها لا تستطيع خداعه.

وأخيرًا، ظهر جسد "هاكمان" ببطء على منحدر ثلجي منحنيًا ومعتمًا. تمنت "ماريا" أن يهزم الرجل الثعبان ولكنها أدركت أن "هاكمان" ليس أهلاً للمهمة. ابتسم الثعبان.

وقفت "ماريا" على عتبة الباب، ففزع "هاكمان" ولكنه عاد طبيعيًا ووضع المفتاح في القفل.

– هل هذا هو المكان الذي تركتكما فيه، خارج الباب في هذا الثلج؟ أخبرني القس بأن أُبقي الباب مغلقًا من باب الاحتياط، فهذه الأيام يتجول كل أنواع البشر، كان يجب أن أدعكما تدخلان، حيث الدفء، على الرغم من أنني لا أرى أي شيء لدينا يستحق السرقة، الخبز، ربما، ولكن يجب أن نعطي المحتاجين، لا يمكنكِ تسمية هذه سرقة. لابد وأنكما متجمدان من البرد.

بالداخل، جلست "ماريا" على حافة المقعد، بينما وضع "هاكمان" بعض قطع الحطب في الفرن، وبسبب الدفء، نام "يوهو" في حضن أمه. مسح "هاكمان" يديه في ذيل معطفه واختفى في غرفة أخرى. وضعت "ماريا" "يوهو" على الكنبة وذهبت لتشرب بعض المياه من الإناء. عاد "هاكمان" بنصف رغيف وصندوق به بعض حبَّات البطاطس التي اسودت بفعل الصقيع.

أطلق "هاكمان" ضحكة ساخرة وهو يقول:

– لا يجب أن أعطي سكان التكية مثل هذا الطعام.. أليست البطاطس أصغر حجمًا هذه الأيام؟

فقالت "ماريا":

– لا يمكنك التفريق بينهم وبين حبَّات التوت.

فتمتم "هاكمان" معتذرًا:

– هذا ما آكله أنا أيضًا، فليس هناك أي شيء آخر، فعلينا أن نعيش بما هو متوافر لنا.

فأسرعت "ماريا":

– هذا كثير، لا أذكر آخر مرة رأيت فيها البطاطس.

تنهد "هاكمان" تنهيدة راحة، وأخذ يميل القفص ويراقب الكرات السوداء الصغيرة وهي تتدحرج من جانب لآخر، وقال:

– إنها قليلة مثل تلك السنوات، سوداء وبسيطة.. على الرغم من أنه يصعب تسمية هذا الوقت بالبسيط، فهناك من تم إعطائهم أقل القليل. المحاصيل هزيلة، وما لدي قليل تمامًا كتلك المحاصيل، قليل وأسود.

سرحت "ماريا"، وقالت لنفسها، "أنا سعيدة لأنه يتكلم على الأقل".

طافت كلمات "هاكمان" في الغرفة الصغيرة مثل حبات الثلج المتطاير، وسقطت بلطف على "متالينا" و"يوهاني"، وغطت ذكراهما برقة، وابتسمت "متالينا" من تحت غطاء الثلج.

- الصبي نائم في هدوء نعيم، سيكون من المؤسف إيقاظه.

اختفت قطرات الثلج الخفيفة، واستيقظت "ماريا" في الغرفة المظلمة. نظرت إلى "هاكمان" مستعجبة. كان قد توقف عن أرجحة القفص وأخذ يلقي بالبطاطس في قِدر صغير.

استمر "هاكمان" في كلامه وأشار إلى "يوهو" المستلقي على الكنبة:

- ولكن يجب أن يستيقظ حتى يأكل. لا يمكنني أن أدعكما تخرجان ومعكما طعام، فالكل جائع بالخارج، والجوع يصيب الناس باليأس، لقد رأيتهم ذات مرة يخطفون قطعة خبز من فم طفل.

- قتلوا لصًا عند مفترق الطرق في الجانب الآخر من الجسر.

مضغ "يوهو" قطعة البطاطس لفترة طويلة، حتى ذابت وخرجت من جانب فمه كاللعاب. لم يقل "هاكمان" شيئًا، فقد أخذ يحدق في "يوهو" الذي أخذ فكه يتحرك بلا توقف، فاستمرت "ماريا":

- حسنًا، لا أعرف إن كان مات أم لا، ولكنه كان بمثابة ميت.

وأخيرًا همس "هاكمان":

– يجب علينا أن نحاول فهم أنه مع نقص الغذاء في كل مكان، سيطارد الناس كتلة اللحم وكأنهم مجموعة من الذئاب وسيقطعون بعضهم البعض إربًا إربًا.

– في الواقع، لقد سرق قطعة لحم كبيرة.

❄ ❄ ❄

اختفى الثعبان، ولمعت النجوم. بدت متلألئة وميتة. سارت "ماريا" في ممر في الثلج متجهة إلى التكية وفي يدها مصباح. أتى "هاكمان" خلفها حاملًا "يوهو" النائم.

من داخل الكابينة، شعروا بدفعة دخان ثقيل. رأت "ماريا" بصعوبة فرن مصنوع من صخور سوداء، ولهيب أحمر يتلألأ ويتأرجح بضعف تجاه الأرضية القذرة، ثم ينسحب مرة أخرى خلف الأحجار عقب الاصطدام بالناس رثة الثياب الراقدة هناك، قال "هاكمان" قبل أن يغلق الباب:

– فليرحمكم الله.

بعدها التقطت "ماريا" "يوهو" وبحثت عن مكان للجلوس. وجدت مقعد أسفل النافذة فذهبت إليه وأرقدت "يوهو" على الأرض، ليكون قريبًا من الفرن بأكبر قدر ممكن.

كان زجاج النوافذ الصغيرة مغطى بالسخام من الداخل وبالصقيع من الخارج، ولكن على الرغم من هذا كانت "ماريا" لا تزال ترى النجوم من خلال الزجاج. فجأة، التفت أصابع عظمية حول رقبتها وألقتها على الأرض. اخترق لهاث بغيض جوعها وتعبها، وأصابها بالرعب. حاولت أن تصرخ، ولكنها لم تستطع التنفس. أخيرًا، تركت اليد رقبتها، وبدأت تمزق ملابسها. بدأت الأصابع الباردة تتلمسها باحثة عن خبزٍ مخفي تحت ملابسها، أو لحمها، الذي أنهكه الجوع. حاولت "ماريا" عبثًا أن تمسك بكم "يوهو"، ولكن الأصابع ضغطت على معصمها ولوت كفها.

- بددت العاهرة سلعتها، وحسبت أنها ستحصل على الخبز مقابل هذا.

صوت خبيث لامرأة عجوز انطلق في ظلام الغرفة، قالت وهي تطلق ضحكة غريبة:

- ألم تتمكني من دخول غرفة رجل ثري؟ أهذا الذي أتى بكِ إلى هنا لتعرضي بضاعتك؟

اصطدم الصقيع بالجدران الخشبية، وفي نفس الوقت اختفى الرجل في الهواء كريه الرائحة. تُركت "ماريا" مستلقية في الفراغ.

ارتفع صوت قرقعة: سقط الرجل على الأرضية. استغرقت "ماريا" لحظة لكي تستوعب ما حدث. ثم التفتت لترى جسدًا نحيلًا يمسك بقطعة خشب طويلة.

صرخت المرأة العجوز في فزعٍ:

- أنت قتلت رجلًا، قتلت رجلًا صالحًا.

جاءها صوت رنَّان من الركن:

- اخرسي أيتها العجوز.

- تتآمر مع العاهرة. العاهرة تغري والآخر يضرب. لقد قتلا رجلًا، قتلة! قاتل! عاهرة!

- كلمة أخرى، أيتها التافهة الداعرة، وستنالين ضربة من نفس اللوح.

كان الصوت لصبي صغير، ربما لا يتعدى عمره سن "متالينا". استيقظ "يوهو" وأخذ يشهق بالبكاء، فالتقطته "ماريا" وأخذت تهدئه وتهديء نفسها.

انفتح الباب محدثًا صريرًا، ثم ظهر فانوس ومن وراءه ظهر وجه "هاكمان":

- باسم الرب، ما هذه الجلبة؟

أضاء فانوس "هاكمان" الغرفة. كان جسد الرجل العظمي منبطحًا على وجهه على الأرض، وعيناه مفتوحتان على وسعهما. كان يبدو كالقشة وهو يسبح في دمه. ومع هذا بدا الرجل وكأنه ينظر إليهم من مكانٍ بعيدٍ للغاية.

أعلن "هاكمان" بحزن:

- مات.

قالت العجوز الهزيلة:

- قتلته العاهرة! العاهرة ومساعدها.

ولكن كلماتها ضاعت في المكان بدون أن يبدي أحدٌ أي رد فعل لما قالته.

فتدخل رجل جالس عند الركن وقال:

- اخرسي، أيتها البقرة المجنونة. لا تلقي بالاً لها. يمكنك رؤية ما حدث: كان الرجل يحاول أن يتحسس طريقه في الظلام وبنطاله ملفوفٌ حول كاحليه، فتعثر واصطدمت رأسه باللوح.

نظر "هاكمان" إلى الجثة، ثم التفت إلى الصبي الممسك بلوح الخشب، فقال الصبي بهدوء:

– وجدته على الأرض، فالتقطته لأمنع وقوع أي حادث آخر.

فقال "هاكمان" في أسفٍ:

– لم تبلغ مبلغ الرجال بعد ولكنك اخترت هذا الطريق بالفعل.

– أتقصد التسول؟

فأجابه "هاكمان" برقة:

– أنت تعلم ما أقصد، من أجل روحك، تحتاج أن تعرف بأنك أيضًا لديك روح، تمامًا مثل هذا المسكين.

فقال الرجل الجالس عند الركن:

– لقد فات أوان هذا.

– صحيح أنه مات، ولكنه ربما يرجو رحمة الله الآن – كما سنفعل جميعًا يومًا ما.

أعطى "هاكمان" الفانوس للصبي ثم وجَّه كلامه للرجل الجالس عند الركن:

– يجب أن نخرج الجثمان، سنحمله إلى مخزن الحطب حتى يطلع الصبح.

– فلنلقيه بالخارج وحسب، سيحفظه البرد من التعفن.

– لقد كان إنسانًا أيضًا. وعلى أية حال، ستأكله الكلاب إذا ما تركناه في العراء.

رفع "هاكمان" والرجل الجالس عند الركن الجثة، وأضاء لهما الصبي الطريق بالفانوس.

سمعت "ماريا" صوت "هاكمان" يقول قبل غلق الباب:

– سيتوجب عليك الرحيل في الصباح أيها الصبي، لن يمكنك البقاء هنا بعد الآن.

وبمجرد أن اختفى الفانوس، عادت الغرفة للظلام مجددًا.

قالت العجوز متهكمة:

– هل العاهرة سعيدة الآن؟ لقد قتلتِ رجلًا صالحًا.

جاءها صوت امرأة أخرى آمرًا:

– اغلقي فمِك اللعين هذا. اتركي الأطفال ينامون على الأقل. أيتها الشمطاء الدامية.

ألصقت "ماريا" خدها بخد "يوهو". كانت دموعها جافة، ولكن الدموع على خد "يوهو" هدأتها.

❄ ❄ ❄

وقفت امرأة ومعها أطفالها الأربعة خارج منزل "هاكمان". خرجت العجوز الضئيلة تعرج من مخزن الحطب واتجهت ناحيتها، سمعتها "ماريا" تشرح لها كيف قتلت عاهرة رجًلا صالحًا أثناء الليل. حيث أغرته أولًا، ثم وضعت يدها على ماله، وأعطت إشارة إلى شريكها ليضربه بالعصا. وغض القس الطرف عن تلك الواقعة بعد أن اشتروا سكوته. حاول الأطفال الاختباء من العجوز خلف أمهم. وعندما خرج "هاكمان"، تابعت العجوز طريقها، وأمسكت بكم أول شخص قابلته وأشارت إلى "ماريا".

نظر "هاكمان" إلى "ماريا" بحزنٍ ودسّ قطعة من الخبز في يدها. نصحها بأن تذهب إلى التكية الرسمية في الجانب الآخر من المدينة، حيث ستتقاضى الخبز مقابل العمل، واستطرد قائلًا:

- إن كان لديهم أي خبز.

- وماذا يصنعون هناك؟

- توابيت.

خرجت ضحكة مكتومة ساخرة من "ماريا". لاحظ "هاكمان" أيضًا بشاعة الموقف. وكسا وجهه تعبير بين الوجوم والاعتذار، وهمس لها:

- ضعى ثقتك في يسوع.

وخرج ليقود المرأة وأطفالها الأربعة إلى التكية.

❄ ❄ ❄

لحق الصبي الذي ضرب الرجل بـ"ماريا" عند أحد أطراف المقبرة. كان أطول منها بشبرٍ واحدٍ تقريبًا، إلا أنه لا يزال صبيًا.

- أوه، هذا أنت. لم تسنح الفرصة لأشكرَك.

- لا عليكِ، شعرت أنني أريد ضربه على أية حال. أنا فقط لم أجد الفرصة لضربه من قبل.

- ما اسمك؟

- "روني".

فضحكت "ماريا":

– أي نوع من الأسماء هذا؟ أنت لن تجد مثله في سجل الأبرشية.

– وهل ما زال أحد منا في السجل، الذي ينادون علينا منه عند أبواب السماء؟ لا يهم الاسم الذي تتسول به. لم يكن الاسم الذي أسماني إياه القس ذا معنى، لم يبذل الراعي مجهود كافٍ ليحافظ على حَمَلِهِ. أعطيت لنفسي اسمًا والآن أنا سيد نفسي.

– ألا تخف على روحَك، كما نصحَك "هاكمان"؟

– صدقيني، لن ينقذِك القس الذي يعرف اسمك، هل تمانعي مقاسمتي قطعة الخبز التي أعطاها الخروف لكِ؟

– أحتفظ بها لــ"يوهو".

فانحنى "روني" تجاه الصبي وسأله:

– حسنًا، هل سيقاسمني "يوهو"؟

ضحكت "ماريا" وأخرجت الخبز من جيبها. حاول "روني" أن يُسلِّي "يوهو" عن طريق التظاهر بقطع إبهامه، ولكن "يوهو" حدق بحزن إلى

الإصبع المثني، ولم يجد أي شيء مضحك في هذا. جلس ثلاثتهم على سلالم الصومعة وكسرت "ماريا" قطعة الخبز إلى ثلاثة أجزاء.

لعق "روني" الخبز وتنهد وقال بإعجاب:

– لحاء حقيقي. إنه ثعلب وليس إنسان، ذلك يبرر كونه قس.

فسألته "ماريا":

– هل ستذهب إلى التكية لصنع التوابيت؟

فهز "روني" رأسه وأجاب:

– أتعلمين، لن أسألِك عن اسمِك. ففي نهاية هذا الطريق، هناك مقبرة جماعية. ولن يكون هناك قسٌ يمسك بقائمة أسماء. وعندما يُبعث الناس يوم القيامة، لن يعرفوا العظام التي جمعوها للبعث. قد يحمل صديق جيد يُدعى "فيليامي" عظام ساق "يوسي"، وحينها هل سيكون "فيليامي" أم "يوسي"؟ وسيسحب الشيطان الكثير منها ليرى مَنْ سيُبعث مكتملًا ومَنْ لن يُبعث. سنكون جميعًا عبارة عن كتلة عظمية واحدة مكوَّمة فوق بعضها. في الواقع، نحن بالفعل في مقبرة جماعية، كيف يمكنك التفريق بيننا وجميعنا نشبه الهياكل العظمية؟

ضحك "يوهو"، وهو ما حسَّن مزاج "ماريا".

قالت للصبي:

- بعض مُلَّاك الأراضي لديهم قدر من اللحم يكسي عظامهم.

- ويذهبون للجنَّة أيضًا؛ فهم يعرفون كيف يتمتمون باسم "الرب العظيم"، حتى النحيفون منهم يعرفون كيف يقولونها. أمَّا البقية مننا فمن الواضح أننا سننادي على الشيطان. ولكن "فاسكو"، لن ينادي باسم الرب. فلقد لعن عامل المزرعة والخادمات باسم الشيطان، ولكن الشيطان لن يثقل نفسه بالمضايقات: حيث سيصبح "فاسكو" صاحب عمل، حتى في الجحيم، بينما سيشعر الشيطان بالأسف من أجل الأرواح المعذبة. وبالتالي سيتسلل "فاسكو" العجوز أيضًا خلال أبواب السماء.

تسلَّت "ماريا" بحكايات الصبي، فلقد استمع جيدًا لحكايات العجائز، وعلَّم نفسه كيف يتبجَّح مثل العاملين في البيوت الكبيرة. أولئك الذين يجلسون في الحفلات الراقصة شابكين أياديهم خلف رؤوسهم ويرتدون القبَّعات التي تغطي عيونهم، ويثرثرون عن السادة والعشيقات ومؤخرات الخادمات. وفي الصباح التالي يقفون ممسكين بقبعاتهم احترامًا لأسيادهم الأشرار وكأنهم يخضعون لاختبارات كاهن بخصوص التعاليم المسيحية، ويُلامون لتسريجهم السيء للحصان أو سنّهم البالي للمنجل.

لازال "يوهو" يضحك. حفر ضحكه ممرًا في اليأس الرمادي. ولم يقودهم إلى موت أبيض، وإنما إلى مدينة "سان بطرسبرج" الربيعية بألوانها الخضراء المصفرة. وفي معدة "ماريا" الجوفاء الجائعة، التي تحكم أصابع قبضتها العظمية عليها، بدت مدينة القيصر كشمسٍ مشرقة. الآن، تستسلم قبضتها، ويظهر أمامها شارعٌ مرصوف. أشجار "البتولا" الجميلة تملأ الطريق الذي تمشي فيه "ماريا" ممسكة بيد "يوهو". يدخلان محلاً ويشتريان رغيفًا. يبتسم التاجر الثمين ويمدح "يوهو"، ويدعوه بالصبي الوسيم. يظهر الوجه المبتسم لزوجة التاجر من الغرفة الخلفية. هي أيضًا تؤكد على وسامة "يوهو" ويعطيه الرجل فطيرة حلوة.

قاطع "روني" أفكار "ماريا":

- أخبريني باسمكِ على أية حال. يمكنني أن أوصي عليكِ عند بوابات السماء سأسبقكِ إليها.

- اسمي "ماريا". إنك لست ذاهبًا إلى السماء. ولكن بإمكاني التحدث بالنيابة عنَك للقيصر عندما أصل "سان بطرسبرج".

قال "روني" قبل أن يختفي خلف الصومعة:

– آها. إذًا فالرب لا شيء إذًا. فلنكمل سويًا. يمكنني الذهاب إلى "سان بطرسبرج" أيضًا لأصبح جندي. انتظري ثانية، عليّ أن أرى شيئًا ما.

❄ ❄ ❄

خارج المدينة، حصلوا على توصيلة على زلّاجة رجل عجوز. استمرت الرحلة في صمت؛ كان صوت الثلج تحت أقدام الخيل هو الصوت الوحيد. أوقف المزارع الزَّلاجة عند حقل، وقال:

– ستهبطون هنا. سيروا في الممر عبر الحقل، ستجدون بعض المنازل هناك.

أدركت "ماريا" أن الرجل لا يريد أن يبقى معهم حتى الليل. فحاولت أن تنظر لعينيه، ولكنه كان ينظر إلى الحقل أو إلى الثلج ولم ينظر لها مباشرة أبدًا.

لم تكن فترة ضوء الصباح القصيرة قد انتهت بعد. وفي منتصف الحقل كان يوجد اسطبل، فاقترح "روني" أن يستريحوا فيه لفترة وجيزة ويأكلون شيئًا.

فتسائلت "ماريا":

– وما الذي لدينا لنأكله؟

فأخرج "روني" رغيفًا من داخل معطفه، فسألته "ماريا" في فزعٍ:

- هل سرقته؟

- نعم، سرقته.

كانت حوائط الاسطبل مليئة بالثغرات، ولكنهم وجدوا بعض التبن بالداخل. تساءلت "ماريا" إذا ما كانوا سيقضون الليلة في هذا المكان.

قسَّم "روني" الخبز إلى ثلاثة أقسام وأعطى القطعة الأصغر لـ"يوهو"، فسألته "ماريا":

- كيف أصبحت متسولاً؟

- طردني "فاسكو" في اللحظة التي بدأت بطنه تصوصو فيها. عجوز ثمين وجشع. إذا ما شعر أنَّه على وشك الشعور بالجوع، يجب أن يجد الطعام أمامه في الحال، وبعد التفكير وجد أنه إن لم يطرد العمَّال، فلن يجد ما يكفيه ليلتهمه.

- هل أنت يتيم؟

- توفت أمي بالتيفود في ملجأ الفقراء. كان هذا في الربيع. ظللت أتنقل باستمرار من حينها. لن يفيدني البقاء في مكانٍ واحدٍ. لم أعد طفلًا.

كان علي أن أتعلم السرقة. فلن يشفق أحدٌ على شخصٍ مثلي، وليس لي طفل صغير أتسكع به بعد. لو كان لدي، لكنت جعلته يقوم بالاستعراضات أثناء تسولي. باستطاعتِك أن تعيريني "يوهو" - سأعيش ملكًا حينها. أراهن أنكِ كل ما عليكِ فعله هو حمله والطرق على أبواب الناس، الذين ستمتلئ عيونهم بالدموع وبعدها سيعطونك خبزهم.

فأجابته "ماريا" وقد تذكرت "متالينا":

- ليس الأمر بهذه السهولة.

رأى "روني" من تعبيرات "ماريا" أنَّها تبتلع دموعها مع الخبز. فوضع يده على كتفها، فوضعت "ماريا" يدها على يده وضغطت عليها برفق. شعرت للحظة وكأن كل المتسولين في العالم عائلة واحدة تشعر بنفس الآلام وتحزن على "متالينا"، وتشاركها حملها الثقيل.

تقوَّس "يوهو" و"ماريا" و"روني" ليناموا بين التبن القليل، ملتصقين ببعضهم البعض كفئران صغيرة نائمة في عشها. ضربت "ماريا" آذان "روني" التي برزت كجناحي طائر صغير يتعلم الطيران، من الصعب تخيل ذلك الصبي ذو الآذان المنتصبة هيكلًا عظميًا، على الرغم من أن وجهه قد ذبل من الجوع وجحظت عيناه وأحاطتهما الهالات السوداء. غط "يوهو" و"روني" في نوم هادىء، وأغلقت "ماريا" عينيها أيضًا.

❄ ❄ ❄

نهضت "ماريا" من فوق التبن. أصبحت جدران الاسطبل ممتلئة بفراغات أكثر. وكانت الرياح تدوي، بدت كصوت شخصٍ يعاني من التهاب رئوي. عبر فتحات الحائط، رأت "ماريا" شكلًا ذا ثلاثة سيقان يقترب من على بعد في الحقل، وفجأة تعرفت عليه. كان الرجل الذي ضربه "روني".

كان يمشي بين الثلج بدون بنطلون، بينما تدلى عضوًا طويلًا بين ساقيه مثل كتلة ثلجية ضخمة. كان عضوه يحفر إخدودًا في الحقل الثلجي. امتلأ الأخدود بالدم الأحمر.

ملأ الرعب "ماريا". ألصقت نفسها في الحائط آملة ألا يراها الرجل. كان يجر نفسه مارًا على الاسطبل عندما توقف فجأة والتفت يحدق بعينين ميتتين ولسان يتدلى بشكل مخيف. وامتلأت عيناه بشيء جعل "ماريا" تتجمد من الرعب.

إنه "يوهاني".. زوجها "يوهاني". ولكن ارتياحها لم يدم طويلًا. كانت عيناه عبارة عن كرتي ثلج تفتتتا بفعل الريح تاركتين خلفهما حفرتين سوداوين، ثم ضربت عاصفة ريح "يوهاني" الذي تحول إلى

كومة ثلج تطاير في كل مكان. زال من الوجود في بطء، تفتت حبيبها في الحقل الأبيض. انتبهت "ماريا" ونظرت إلى "يوهو" الراقد على التبن. لم يكن "يوهو"، كان "روني".

ولكنه "يوهو"، لم يوجد"روني" أساسًا. ولكن ابنها "يوهو" قد كبر بدون ملاحظتها وأخطأت وحسبته رجلًا. صرخت، ولكن الصرخة لم تخرج من حلقها – يدٌ خفية كتمت الصرخة في فمها، الذي ظل مفتوحًا. "ماريا" لا تستطيع التنفس.

أدركت أنه نفس الاسطبل الذي تركت فيه "متالينا"، وعندما التفتت لترى مَنْ حولها، رأت "متالينا" راقدة بجوارها بيضاء كالثلج على لوح خشب رمادي.

❄ ❄ ❄

استيقظت "ماريا" فجأة وهي تشهق. اخترق البرد جسدها من كل ناحية. هناك "يوهو" بجانبها، محتضنًا الصبي "روني". حاولت "ماريا" أن تتخلص من الكابوس، ولكنها استغرقت وقتًا طويلًا حتى يتركها الكابوس في سلام. فهزت "روني" لتوقظه:

– يجب أن نواصل طريقنا، سيكون الجو باردًا جدًا إذا ما بقينا الليل هنا. ستظلم الدنيا قريبًا.

استيقظ "روني" على مضض، وعندما فتح عينيه نصف فتحة، اندفع البرد إليه، وعندما أغلقهما ثانية، سحبه شيء ما إلى عمق الدفء لينام، ولكن "ماريا" أجبرته على الاستيقاظ هو و"يوهو".

❄ ❄ ❄

امتدت الظلال. بدأت تنتشر على الأرض ثم غطتها تمامًا. كان الثلج عميقًا، تبادل "روني" و"ماريا" حمل "يوهو". حاولت "ماريا" أن تُبقي صورة "سان بطرسبرج" في عقلها، ولكن المدينة تضاءلت. حقل من الثلج وغابة مظلمة ينموان حولها، وأخيرًا تُخفي الأشجار القصور التي هربت في الأفق.

في النهاية، كل ما تبقى أمامها كان ممر أبيض يتعرج بين النتوءات الكئيبة. ألقى الثلج ضوءً قاسِيًا: حيث يغريك بطريق لا يقصر مهما مشيت فيه. ثم فجأة ظهر نهر متجمد به جسر خشبي، وطاحونة ومنزل على الجانب الآخر.

❄ ❄ ❄

بدون أن يطرق الباب أولاً، دفع "روني" باب بيت الطاحونة. كانت الغرفة صغيرة. كان الطحَّان راقدًا يلهث على الكنبة. كان السرير صغيرًا جدًا عليه؛ فانحنى الرجل بشكل غريب. رسم الضوء الضعيف ظلالًا عميقة على وجه الطحَّان الشاحب كوجوه الموتى. التفت تجاه الباب ونظر إلى الزائرين بعينين فارغتين.

جاء الصوت من الركن:

- وضيع.

رأت "ماريا" امرأة رمادية الشعر. كانت تضع على رأسها جورب صوفي كبير، يتدلي على جبهتها، ويخرج منه شعرها المتشابك. نظرت "ماريا" إلى قدمي الطحَّان، فوجدتها طويلة. إنه رجل طويل. كان – لم يعد كذلك.

أمرتهم المرأة:

- اغلقوا الباب، لن تجدوا مكانًا آخر تلجأون إليه في هذه المنطقة. وستتفادون العدوى مما أصابه إن لم تقتربوا منه، ولكن الصقيع سيقتلكم بلا شك إن سرتم في الليل.

وعدت المرأة "يوهو" فقط بالطعام. الغرفة معتمة، وترتعش ألسنة النار المكشوفة عاكسة ضوءً غريبًا. اختفت المرأة للحظة في الظلام وعادت للظهور عند الركن والضوء الأحمر مُسَلَّطٌ عليها.

تتدلى حزم من التبن المجَفَّفْ من السقف. نهضت المرأة بصعوبة وكسرت عودًا من الحزمة وفتتتها في سلطانية خشبية، قبل أن تصب عليها الماء الساخن من براد كان على سطح الفرن، ودفعت بالسلطانيات إلى "روني" و"ماريا". تردد "روني"، فأطلقت المرأة ضحكة فارغة، ونظرت إليهم بحدة:

- كنت أعرف أن هذا سيحدث عندما جلس غراب أبيض على الطاحونة في الخريف منذ سنتين.

فهمس "روني" إلى "ماريا":

- إنها مجنونة.

خبطت المرأة بقبضتها الضئيلة على المنضدة، وومضت عيناها السوداء، وانفجرت بضحكة باردة مرة أخرى.

- لا يهم، مَنْ لا يريد أن يعيش في وقت كهذا؟ وبعدها انتشر المرض هنا لمدة عام، وأُصيب كبار السن من الرجال بالصديد وتقريبًا ماتوا بسببه. لم يتمكنوا من فتح عيونهم لعدة أسابيع، بعدها تفقد عين واحدة إبصارها. ها هو جسده هناك، قد أصبح قشرة كبيرة، شيء يلزمك بأن تفقد عقلك، إنه غضب الله على شر الإنسان، كما يقول القس.

نظرت المرأة إلى الطحَّان اللاهث، ثم رفعت نظرها متفحصة السقف وابتسمت بابتهاج للسحب الداكنة التي تجمعت فوق الكوخ، وكأنها تبتسم لملكوت السماء، ولمع شيء داكن في وسط بهجتها:

- وما هو الأذى الذي أوقعه بكَ هذا الرجل؟ سأفقأ عينيك، أيها الشيطان، فهذه هي الطريقة الوحيدة حتى ترى معاناتنا!

جفلت "ماريا" من صوت المرأة المُدوِّي، وتأكدت من أن "أبانا على عرشه" قد اندهش أيضًا وأخذ يعدل من وضع جلسته حتى يشعر براحة أكبر، وانتحب الطحان من فوق سريره:

- آاه.

وحاول أن يرفع قبضته ولكنها هبطت واهنة على الغطاء.

حدَّقتْ المرأة في السقف الخشبي للترابيزة، وخدشتها بأظافرها السوداء. شاهدت "ماريا" المرأة وأخذت تلاحظ أصابعها، وكأنها تتوقع أن ينفتح أمامها حقلًا للبطاطس الزاهرة الكبيرة ذهبية اللون النامية في الأخاديد المحروثة. ولكن لم يكن تحت أظافر المرأة إلا شظايا من الخشب، هدأت المرأة وأرادت أن تسر لهم بشيء:

- طوال الخريف، كانت الناس تأتي لتحصل على دقيق عظام الحيوانات المطحونة، لم يطلبوا القمح، ولكنهم أرادوا العظام، المتآكلة البيضاء. أحيانًا أعتقد أنه قريبًا، عندما يحين أجله، سأطحن عظامه أيضًا لأصنع بها دقيقًا فاخرًا. وبالسحر سأحشر جسدي بين حجري الرحى في الطاحونة. وسأترك الباب وكل فتحات التهوية مفتوحة حتى تأخذنا الرياح بعيدًا. حتى لا يبقى لنا أي أثر في هذا العالم، وكأننا لم نوجد قط. رجل قضى عمره يعمل، وهذه هي نهايته.

فجأة، نهضت المرأة وأمرت المتسولين أن يناموا على سرير الضيوف. أدارت الطحَّان على جنبه ونامت بجواره على الكنبة الضيقة.

كان وهج المدفأة عاليًا بشكل غير طبيعي.

❄ ❄ ❄

لم يستطع "يوهو" البقاء مستيقظًا. فتبادلت "ماريا" و"روني" الدور لحمله. صدمت الرياح وجوههم؛ باردة وغامضة، كان من الأفضل أن يسيروا في صقيعٍ كاملٍ بدلًا من تلك الرياح. أصبحت اليد العليا الآن للثعبان الذي أخذ يحوم حولهم، مهددًا بتدبير كمين لهم من خلف الأشجار ولكنه فشل في تسديد ضربة حاسمة لهم.

وبعد مسيرة لم تبد لها نهاية، رأت "ماريا" بيتًا على قمة تل، فتراجع الثعبان إلى الحقل منتظرًا استكمالهم الرحلة.

نبح كلب نحيف في حديقة المنزل، وقبل أن يكشِّر عن أنيابه، كشَّر "روني" وجهه قائلاً:

– عد من حيث أتيت!

رفس رجل ضخم ذو شارب متدلٍ باب المنزل. كان يرتدي قميصه فقط، أشار بإصبعه إلى الحقل، نفس الحقل الذي يستقر فيه ثعبان "ماريا"، وكان عليهم أن يصبروا ولكن "ماريا" ترجته:

– الطفل مُجهد، كن رحيمًا أرجوك.

ظهرت امرأة نحيفة من الحظيرة، وتوجهت إلى "ماريا" التي كانت تحمل "يوهو"، وأمسكت بذقن الطفل لترى وجهه وتنظر إلى عينيه وسألت:

- هل تعانون من أية أمراض؟

- لا، ولكن الطفل مُتعب، وجائع، ويشعر بالبرد.

فقالت المرأة لزوجها الواقف عند السلالم:

- لا يمكنك طرده في الليل هكذا.

- الصبي الآخر بالغ، لن أدخله، إنه لص، هذا واضح عليه.

فقالت المرأة بتعجرف:

- يمكنكِ قضاء الليل مع الطفل، وفي الصباح، ستذهبين للقرية. لا يهمني إن كنتِ مستعدة لهذا أم لا، أمَّا هذا الصبي فسيرحل حالًا، إذا ما أسرع بالرحيل، سيصل للقرية قبل هبوط الليل.

فاحتج "روني":

- ستظلم الدنيا سريعًا.

- ستمشي دون أن ترى شيئًا إذن، هذا ليس شأني، القرية ليست بعيدة.

فسألتها "ماريا":

- هل توجد منازل قريبة من هنا يمكننا الذهاب إليها؟

- لا، إن كان هناك منازل لكنت أخبرتكم بالذهاب إليها، إنكم لستم بعيدين عن القرية، باستطاعة الصبي محاولة الوصول إليها، وإذا ما سُرِقَ شيئًا، فهذه مسؤوليته، أما أنتِ والطفل لن تتمكني من الوصول إليها على قيد الحياة.

فقال "روني":

- سأذهب، سأنتظركما في القرية.

حاولت "ماريا" أن تعانقه لتودعه، ولكنه كان قد نزل من على التل بالفعل.

تبعت "ماريا" الرجل والمرأة إلى داخل المنزل حاملة "يوهو"، ورأت "روني" عبر النافذة، الذي توقف عند سفح المنحدر، وقد انحنت كتفيه. جعلته هبَّة ريح يتمايل كفرع شجرة صغير، تبعه الكلب النحيف لفترة وجيزة ثم أخذ ينبح في منتصف المنحدر حيث تتناثر شجرات الصنوبر.

- أمي؟!

أتى الصوت من الجانب المظلم. وعندما تكيفت عينا "ماريا" على عتمة الغرفة، وجدت صبيًا يجلس على المقعد بجوار الفرن. كان في عمر "روني". وأجابته المرأة:

- إنني هنا.

- مَنْ هنا؟

- أغراب، لا تعرفهم.

نظر الصبي في الفراغ المجاور لـ"ماريا" وكأن شخصًا يقف فيه، فلاحظت "ماريا" أنَّه أعمى، وقال الرجل للصبي:

- إنه ميعاد النوم.

نهض الصبي وتسلَّق حافة الطوف الدافئ فوق الفرن، وعندما أشعل الرجل لفافة ورقية، رأت "ماريا" وجه الصبي. كان ما يزال ينظر إلى جوار "ماريا"، ولم تتأكد هي إن كان هناك أحد يجلس بجوارها بالفعل.

استقر المزارع على رأس الترابيزة، وحدَّق بضيق إلى "ماريا" وأخذ ينفخ في شاربه. هناك شيء فاتر بخصوص هذا الرجل، وكأنه يستنشق ويزفر الرياح التي تحرِّك نبتة "الحزَّاز" على الأفرع الصنوبرية. أشعلت المرأة النيران في الفرن ووضعت برادًا عليه، وسريعًا ما تصاعد البخار منه.

عندما وضعت المرأة السلطانيات أمام "يوهو" و"ماريا"، وقف الرجل واختفى داخل غرفة النوم. احتوت السلطانيات على عصيدة رمادية اللون. جلست المرأة صامتة على رأس الترابيزة في نفس مكان جلوس زوجها، وكان في حضنها نصف رغيف كسرته إلى قطع صغيرة وناولتها لـ"ماريا"، التي قالت:

- شكرًا لكِ.

رأت "ماريا" الصبي الأعمى مرة أخرى على الحافة الطوبية، فزمجرت المرأة له:

- نم.

فاختفى وجهه في الظلام، سألت "ماريا":

- أيعاني منذ فترة طويلة من.. العمى؟

- منذ ولادته، ولكنه ليس الوحيد في هذه القرية.

اقشعر بدن "ماريا" من الانتصار الباهت في صوت المرأة.

بدت العصيدة في السلطانية كالثلج الذائب في الممر المؤدي إلى الحظيرة في فصل الربيع، ولكن الآن أصبح التفكير في الربيع أمرًا كئيبًا، فـ"ماريا"

لا ترى الصيف القادم بعد الربيع، هي لا ترى إلا شتاءًا طويلًا لا ينتهي، رفعت الملعقة لشفاهها وحدقت في ظلام الحافة الطوبية، فالتقت عيناها بعينين كفيفتين.

❄ ❄ ❄

أثناء النوم، سمعت "ماريا" صرير ألواح الأرض الخشبية. كانت هناك خطوات تقترب منها في الظلام محمَّلة بلهاث ثقيل. سمعت نقرات على صندوق البارود، ولفافة تشتعل محدثة طقطقة، وفي الضوء الخافت ارتفع ظل مزعج على الحائط، وتأرجح الظل الغريب الطول كالأشباح. كان يخلع قميصه. مال الرجل وهو عارٍ على "ماريا". داهمها وشق قميصها وتنورتها قبل أن تقاومه، التصقت الصرخة بحنجرتها، وجمَّد الرعب صوتها، كمياه باردة سوداء اللون ابتلعت شخصًا غير قادر على السباحة.

– أتحسبين أنِك ستأكلين آخر كسرة خبز لدينا مجانًا أيتها العاهرة؟

غرز الرجل أصابعه بين ساقي "ماريا"، ثم أخرجهم، وبصق عليهم، وأدخلهم ثانية. كان يلهث. بينما كانت "ماريا" كمن أغرقتها يد رعب تحت مياه باردة لن ترحل عنها. لا يوجد هواء. ثم أقبل عليها الرجل، وقال متشنجًا:

- يالكِ من فرسة ذابلة لعينة.

بدت تلك اللحظة وكأن لا نهاية لها، ولكنها انتهت عندما أحدث الرجل ضجيجًا متسرعًا، وبدا وكأنه يطير مبتعدًا عن "ماريا".

سحبته زوجته من شعره، فارتدى قميصه واختفى عائدًا إلى غرفة النوم، وهو يشتم الصبي الجالس فوق الحافة.

وانطلق صوت "ماريا" أخيرًا من حنجرتها. لكنها ابتلعته عندما رأت يد المرأة ترتفع لتضربها، على الرغم من أنها لازالت ترتعش في الهواء.

همهمت المرأة:

- عاهرة، عاهرة، عاهرة.

ثم سحبت "ماريا" من شعرها وأخذت تدير رأسها. تشبث "يوهو" برقبة أمه.

وأخيرًا تركتها المرأة وقالت:

- بإمكانكِ الذهاب إلى الحظيرة لقضاء الليلة هناك مع البقر. حيث لا يوجد ثور لكِ.

جمعت "ماريا" ملابسها الممزقة، وألبست "يوهو" باستعجال، ثم اتجهت للباب وفتحته. كانت الدنيا بالخارج مظلمة وباردة. وقفت المرأة في الحجرة الرئيسية مُشعلة لفافة ورق، وبرزت رأس الصبي الكفيف الأشقر من الحافة باحثًا عن الضوء، الذي أخذ يجيء ويذهب كالبندول.

تركت المرأة شعرها وتحول غضبها في الحال إلى غطرسة. أخذت فانوسًا مُعلقًا على الباب وأضاءته وسلمته لـ"ماريا":

- اذهبي، وفي الصباح سترحلين أيتها العاهرة.

❋ ❋ ❋

دخل الظلام مع هبَّات الثلوج المتكررة. بينما داعبت الرياح الأشجار، وخلف كل هذا كان صمت الليل لا نهائي. قاوم باب الحظيرة محاولة "ماريا" لفتحه، ثم دفعته الرياح فانفتح ودخل الثلج آخذًا "ماريا" معه. وما إن دخلت حتى سمعت خوار البقر الوديع.

كان في فرن الحظيرة جمرات تشع نفس الضوء الخافت الذي كان يشع بداخل منزل الطاحونة. علَّقت "ماريا" الفانوس على العقَّافْ وأضافت بعض الأغصان إلى الجمرات، فاشتعلت محدثة طقطقة ضعيفة

كصوت الثلج المتكسر تحت الأقدام ببركة متجمدة. وجدت بطانية حصان بجوار الفرن فلفَّت بها "يوهو".

كان بالحظيرة ثلاث بقرات نحيفة. رأت "ماريا" مقصين محشورين في الفجوة بين الحائط والباب، فأخذتهما واختارت أصح بقرة وأحدثت في رقبتها جرحًا صغيرًا، فأطلقت البقرة خوارًا مكتومًا. لعقت "ماريا" الجرح وبدأت تمتص الدماء السائلة من عنق البقرة. خارت البقرة مرة أخرى ثم نطحت "ماريا" فسقطت. رقدت على الأرضية وحاولت أن تلعق الدموع من على وجنتيها، ولكن لم تكن هناك دموع. رجاها "يوهو":

- دفِّيني يا أمي.

فزحفت "ماريا" ناحية الصبي، وغطت نفسها بالبطانية بجواره ونامت. رأتْ حلمًا لم تكن فيه. حلم بلا حلم. مجرد ظلام لا حدود له، ولا لون.

❄ ❄ ❄

وأخيرًا، وُلدت "ماريا" من جديد في قلب الظلام. كانت في البداية مجرد انعكاس على سطح الماء، ثم ملأ المشهد حواسها بلا رحمة. تغير الظلام حولها بالتدريج ليتحول إلى الحظيرة. تحول ضوء الحظيرة

الشاحب الآتي من المدخل إلى امرأة انحنت لتلتقط المقص الملَطَّخْ بالدماء، ثم اندفعت باتجاه "ماريا":

- من أي مصيبة ألقوكِ علينا؟

تلألأت عينا المرأة بغضب بارد. جاهدت "ماريا" حتى تتحرر من البطانية وتخرج من الحظيرة ساحبة "يوهو" خلفها. تبعتهما المرأة ممسكة بدلو، وخارج الحظيرة، كان المزارع ينادي على كلبه، الذي لم يكن موجودًا في أي مكان:

- جرحت العاهرة البقرة!

قفز الرجل على "ماريا"، فسقطت واصطدم وجهها بالثلج، ثم جلس عليها وأخذ يصرخ قائلاً:

- سأقتلكِ، سأقتلكِ!

ضغط الرجل بكفه الباردة على وجهها، بينما سمعت "ماريا" بكاء "يوهو"، ومن بين أصابع الرجل، رأت المرأة وهي ترفع الدلو بنية الضرب، ثم دوَّى صوتٌ مكتوم، وارتفعت اليد عن وجه "ماريا"، وانهار الرجل.

أمسكت "ماريا" بكتف "يوهو" وبدأت تترنح وهي تهبط المنحدر. لم تجرؤ على الالتفات خلفها حتى وصلت لسفح التل، حينها التفتت لترى المرأة وهي تضرب الرجل الجاثم على الأرض بالدلو.

❄ ❄ ❄

سحب "يوهو" أمه خارج الجرف الثلجي، فبدأت تمشي متثاقلة وهي تلهث. تسببت العاصفة في نثر الثلج. لم تعد الرياح قادرة على تحديد من أي اتجاه ستهاجم المسافرين.

رأتْ "ماريا" جسرًا أمامها: طريق إلى عالمٍ آخر، عالم له نفس اللون الأبيض. كان الجسر نفسه يبدو كنقطة سوداء في مشهد الثلج الأبيض.

فجأة، رأت "ماريا" جثة الكلب ملقية على الطريق ومغطاة بالجليد. لم تمض فترة طويله على موته. كانت هناك طبقة رقيقة من الثلج تغطيه. كان جانبه مشقوقًا وتخرج منه أحشاءه الرمادية بشكل غريب. أسنانٌ بشرية هي التي مزقته. لم تعلم "ماريا" إن كانت رجفة البرد التي اعترتها بسبب غرابة المنظر أم بسبب العاصفة. كان هذا هو نفس الكلب الذي نبح عليهم بالأمس عند وصولهم للمنزل.

خطت "ماريا" على الجسر، ثم رفعت "يوهو" واحتضنته بأشد ما يسمح به ضعفها. كان الجسر يشبه اللسان الشره؛ على استعدادٍ لأن ينقل المتجول إلى جوف الشتاء ليشبع جوعه النهم غير النهائي.

حددت الرياح اتجاهها ودفعت "ماريا" على الجسر. دوامات صغيرة من الثلج تحيط بقدميها: لم يعد تيَّار المياه يتدفق أسفل الجسر بل بطوله في اتجاه السهل الثلجي على الجانب الآخر حيث يختفي الطريق.

رأتْ الأشجار تحدد المسافة المفتوحة على بُعد، ثم تحولت إلى ظلال الأبراج والقصور بمدينة القيصر. هربوا وتطايروا باتجاه العدم، وفي اتجاه هذا العدم زحفت "ماريا" و"يوهو" في حضنها. القيصر نفسه هبط ليجلس على عرش أكبر أشجار الصنوبر، يرتدي زي الموت، كغراب أسود.

وما إن أصبحت على الجسر، حتى رأت "ماريا" الجثة. كانت تتخذ وضع الجنين، ولكن وجهها ينظر للسماء، وفمها مفتوح على اتساعه، وكأن المتوفي قد لاحظ في آخر لحظات حياته بأن الرحم الذي استقر فيه منتظرًا البعث ما هو إلا رحمٌ باردٌ لهذا الشتاء القاحل.

الأذن الكبيرة جدًا مقارنة بالوجه النحيل جعلت الجثة تبدو وكأنها خفاشٌ متجمد. كانت الأصابع الطويلة متشبثة بالركبة بشكل يائس. انحنت "ماريا" لتقترب من وجه "روني". استغرقت وقتًا لتستوعب أن

تلك الجثة هي جثة "روني" بالفعل. لم تعد عيناه موجودتين، ورثهما القيصر، وهو يجلس الآن على قمة شجرة الصنوبر الكبيرة يريهما مملكته. ها قد وصلتم، هذه هي مدينتكم؛ "سان بطرسبرج". حقل ثلجي، لا يمكنني إعطائكم أكثر من هذا.

حدّقتْ "ماريا" في فم الصبي المفتوح، فرأت شعر ولحم كلب عالقين بين أسنانه.

ألصقتْ شفتيها بحنان بوجه "روني"، فشعرت برجفة الموت وهي تقبل الصبي الميت.

غطَتْ الرياح جثة الصبي بغطاء رقيق من الثلج. شيءٌ ما أجبر "ماريا" على النهوض والاستمرار في المضي قُدمًا، ولكن خارت قواها بعد خطوات قليلة، فتجمدت في مكانها. شوقٌ لا قرار له نهض من أعماق معدتها الفارغة. حاولت "ماريا" أن تحتفظ بذكرى ألوان الحياة على وجه "روني"، ولكنها رأت فقط أذنين لونهما أبيض مزرق جمدهما الصقيع.

تعاظم الشوق إلى حزن ملأ جسدها، وحولها إلى برميل ممتلئ بالمياه الثقيلة التي تضغط على جوانبه، لم يحتمل البرميل. نامت "متالينا" و"يوهو" في أعماق مياه حزنها. تقدمت "ماريا" خطوات قليلة مترددة للأمام، ثم انهارت.

انفجرت المياه وبللت قدميها وتسربت بطول ساقيها، وتحولت إلى لوح قذر مُثقلٌ بالسائل الثقيل. وتبلورت الرطوبة إلى ثلج هش، تهب من خلاله الرياح، وتفككت "ماريا" إلى قطع ثلجية. غطت المنحدرات الثلجية "متالينا" الراقدة على اللوح الخشبي. نادت "ماريا" على "يوهاني" طالبةً مساعدته، ولكن صوتها تحشرج. كان "يوهاني" يشبه بجعة متجمدة متمسكًا بآخر حفرة ماء مفتوحة. لم يستطع الطيران، ولكنه أخفض رأسه وانزلق في اتجاه المياه السوداء حيث تنغلق الحفرة.

شعرت "ماريا" بانهيار جسدها، وارتخت قبضتها الممسكة بيد "يوهو". استمر الانهيار إلى ما لا نهاية، ورأت كل شيء يتحول إلى حقل لا نهائي من الثلج.

ثم توقف الخلود. الأرض لا تستقبلها برقة. ينتظرها بردٌ قاسٍ. ثلج لا نهاية له يبرز كسحابة كلما تداعت "ماريا".

الموت أبيض اللون، توقفت زلاَّجته عند "ماريا". الموت يجلس في مقعد السائق، وحتى القيصر نزل من على الشجرة وجلس بجانب الموت. اختفت الزَّلاجة، وخيَّم الظلام ودفن كل شيء. سمعت صوت "يوهو":

– أمي...

ثم لا شيء بعده.

السيناتور



ارتفع نباح كلبٍ وحيدٍ في الشارع، ثم اشتد نباحه ليتحول إلى عواءٍ. وفي مكان آخر، أبعد بكثير باتجاه "كامبي"، انضم له كلب آخر. مشى السيناتور بترددٍ في شارع "يوريان كاتو". توقف عند منزله ونظر إلى النوافذ القاتمة.

انضم كلب ثالث لحفلة العواء. ارتفع صوت العواء الكئيب ثم انخفض، كموجة تموت على الشاطيء مختفية في الرمال لتفسح المجال لموجة أخرى. ارتفع القمر في السماء، وفي ضوئه رأى السيناتور البخار الخارج من فمه. أصبح وحيدًا. تضاءل حجم مؤيديه بمجلس الشيوخ.

سيشق "ألديربرج" طريقه وسيبدأ إنشاء سكة حديد "سان بطرسبرج". ستتراكم علينا الديون، وهو ما سيكلف الأمة الكثير.

بدا المنزل مهجورًا. الظلال التي خلفتها الستائر الداكنة أكدت هذا الفراغ. لا يجد مَنْ هو مستيقظٌ الآن، في الوقت الذي هو في أشد الحاجة للحديث مع أحدٍ.

خلال الأشهر القليلة الماضية، كان عليه أن يمشي كل ليلة منتصف الطريق حتى يقابل زوجته، ولكنه كان يستيقظ كل صباح بمفرده، عائدًا إلى بداية الطريق مرة أخرى. وعندما يغلق عينيه في المساء، يرى "جانيت" راقدة على السرير وتتلوى محاولة أن تلد طفلًا قبل أوانه، بينما تغرق الدماء السرير. هو نفسه كان يقف بجوارها عاجزًا، يحمل "مجدلينا" ذات العامين. تحتاج "مجدلينا" الصغيرة الجميلة أن تُدفن، والآن تتركه "جانيت" أيضًا آخذة معها الوليد الصغير.

عذبته تلك الأحلام منذ عشرة أعوام مضت، والآن عاودته من جديد. أعادتها له ليلة ثلجية في بداية سبتمبر. بعدها صار واضحًا بأن هذا الشتاء سيكون كارثيًا على البلد.

وفي نهاية أكتوبر، عاد "ألديربرج" إلى منصبه كحاكم عام، اتفق السيناتور مع "إندرينيوس"، وأعطاه "إندرينيوس" مطلق الحرية، بينما

أمسك "ألديربرج" بذمام الأمور بدلًا منه وهو يقود العربة الآن بمفرده: كوغد يتسكع بإهمال على طريق قرية "أوستروبوثنيا".

سيكلفنا إنشاء السكة الحديد غاليًا. وستأخذ مفاوضات الدين مع الألمان اقتصاد البلد إلى حافة الإفلاس. وسيتطلب هذا عددًا كبيرًا من العُمَّالْ. سيتم جرُّ الجوعى من منازلهم لتنفيذ عمليات الإنشاء، وبالطبع ستنتشر الأوبئة. سيموت الكثيرون.

خرج ضوءٌ من المنزل. ما يزال أحدهم مستيقظًا. دخل السيناتور المنزل عبر البوابة. سمع ضوضاءً في البهو، ثم رأى مديرة المنزل خارجة من المطبخ.

ذهب السيناتور ليشعل المصباح الموجود على ترابيزة حجرة الاستقبال، وأخفض اللهب ليضيء بالكاد الغرفة واللوح الفنية الصغيرة المعلقة.

– هل تم دفع فاتورة الجزَّار؟

– "هانا" فتاة جيدة، تهتم بإنجاز كل شيء في وقته، لا تشغل بالَك بهذا.

– حسنًا، يمكنِك النوم الآن "أولريكا"، سأسهر قليلًا.

تمنت له "أولريكا" ليلة سعيدة ورحلت.

تجوَّل السيناتور في أرجاء الغرفة خافتة الإضاءة. وكعادته أخذ يسوي ثنايا الستائر. قام بتعليقها بنفسه، عندما كانت "جانيت" لاتزال على قيد الحياة.

وبعد أن صب لنفسه كأسًا ليشربه، جلس على أحد الكرسيين وحدَّق في الكرسي الفارغ أمامه. فقط لو أن أحد أصدقائه القدامى يجلس عليه، صديق بإمكانه مناقشة أحوال العالم معه.

زود السيناتور لهيب المصباح حتى أضاء الصور المعلقة على الحائط بشكل أوضح. تأمل وجه "جاني"، ودرسه مرارًا وتكرارًا ليتأكد من عدم تلاشيه من ذاكرته، ذلك التعبير الجاد والعينان السوداوان وذلك الحول البسيط الجذَّاب.

اختفى القمر خلف السحاب فسبح الشارع في الظلام. فتح السيناتور الستارة قليلًا ورأى انعكاسه على زجاج النافذة. نفخ في غليونه وتلألأ الوجه للحظة في الضوء، وظهرت تجعيدة عميقة بين عينيه.

أخذ يفكر كيف أن الناس يهتمون بشدة بالتفاصيل، ومع ذلك، فالأهم هو رؤية الموضوع ككل، فالصورة الكبيرة وحدها هي التي تعطي الأهمية للتفاصيل. وإلا ظلت التفاصيل معلقة في الهواء، تمامًا كما لو كانت تلك التجعيدة بين عينيه مجرد خدش على زجاج النافذة.

كتاب "يوهو"



سقط الصبي أولًا. نجح في الوقوف على ركبتيه، ولكن عندما انهارت المرأة، بدت وكأنها تتفتت إلى قطع ثلجية. أمر "تيو" السائق أن يتوقف، فشد الأخير اللجام وهو يسب ويلعن.

كانت المرأة قد ماتت بالفعل، أزال "تيو" قبعته الفرو ثم جثا وألصق خده بالثلج المجاور لوجهها وفحص عينيها. كانت عينيها مغطاتين بلون ضبابي شاحب، كستائر مُسدَلة أمام نافذةٍ، وخلفها كان يوجد فراغ كئيب دائمًا ما تراه في عيونِ الموتى. حاول "تيو" استدعاء أي لهيب حياة في

نظرة المرأة للمرة الأخيرة، ولكنه لم يجد شيء. انتقلت النيران إلى الصبي الذي لن يحيا طويلًا بهذا اللهيب.

قال سائق البنسيون أنهما ليسا من السكان المحليين، فسأله "تيو":

- ماذا يجب أن نفعل بهما؟

فكَّر السائق في نفسه أن هذا ليس من شأن "تيو". لو أن السائق من وجدها لتركها كما هي، وكان ليترك الطفل أيضًا إلى جوار أمه. كان الطفل ليموت بأي حال. ولكن "تيو" التقط الطفل وحمله إلى الزَّلاجة. فصله عن أمه. على الرغم من أن الموت قد فصلهما عن بعضهما البعض بالفعل، إلا أن "تيو" يحاول أن يمنع ملَكَ الموت من أن يتدارك خطأه فيقبض روح الطفل.

قطعوا مسافة ما قبل أن ينظر الطفل للخلف، ويدرك ما حدث، فمد يده وهمس:

- أمي.

بقيت المرأة راقدة وسط الحقل، والثلج يغطيها برقة. وفي اللحظة التي وصلت فيها الزَّلاجة إلى الغابة، لم يعد باستطاعة راكبيها التفريق بين المرأة والثلج.

إذا نام الصبي، فلن يستيقظ. اعتقد "تيو" أن السائق ربما كان أكثر دراية بتلك الحالات في نهاية الأمر. ربما يكون من الأفضل أن يموت الصبي بجوار أمه، بدلًا من أن يموت في زَلّاجةٍ غريبة. سينتهي بهما الحال مدفونين في مقبرة جماعية واحدة؛ سيتمكنان من البقاء معًا، بدلًا من أن يقضيا الأبدية كلاً منهما بعيدًا عن الآخر.

ولكن الصبي على قيد الحياة.

لقد نطق مرة، وسأل عن أمه. جال "تيو" بنظره على الشجر الذي مروا عليه. الضوء الساقط على الأفرع المتجمدة يتحوَّل إلى الأزرق بالتدريج. احتكت قبعة الفراء بجبهته بطريقة مزعجة.

– ما اسمُك؟

– "يوهو".

– إنني "تيو".. العم "تيو". أين أبوك؟

– نائم.

– أين هو نائم؟

– ذهبت "متالينا" إلى أبي في الاسطبل.

- ومَنْ "متالينا"؟

- أختي.

- هل أختك نائمة أيضًا؟

همس "يوهو":

- نعم.

الأب، والأم، و"متالينا" لم يعد لهم وجود، يوجد "يوهو" فقط. حدَّقَ الطفل بقوة ولفترة طويلة في قبعة السائق المُمَزَقْة.

حاول "تيو" أن يحدِثَّهُ:

- من أين أتيتَ؟ أقصد، أين تعيش.. أو أين كنت تعيش؟

لم يلقَ سوى عيني الطفل الباردتين. لا طائل من وراء محاولة معرفة من أين بدأ الطفل وأمه رحلة تسولهما، سأله "يوهو":

- هل ستذهب أمي للاسطبل أيضًا؟

- نعم، بالتأكيد.. ولكن عمَك سيأخذك إلى المدينة الآن.

- إلى الكنيسة؟

– نعم، كنيسة كبيرة للغاية.

– ولكن أمي لن تأتي؟

❄ ❄ ❄

في القرية، بحث "تيو" عن الطبيب المحلي، فوجد واحدًا يُدعى "لوفجرين". وعندما عرض عليه "تيو" أن يدفع إيجارًا لحجرة، رفض بشدة أن يأخذ أي مقابل، وأصرَّ أن يعرض على زميله سريرًا مجانيًا ليبيتا فيه حتى الصباح. على الرغم من أنهما لم يتقابلا من قبل، وأكد "لوفجرين" على "تيو" بأنه بإمكانهما البقاء كما يحلو لهما. أخبره "تيو":

– إنني قريب الطفل. سآخذه إلى "هلسنكي". تُوفي والداه.

نظر دكتور "لوفجرين" إلى ملابس "يوهو" الرثَّة وأخذ يفرك لحيته البارزة، ثم قال:

– يجب أن نجد له شيء أفضل من هذا ليرتديه.

وأضاف ضاحكًا لـ"يوهو":

- زي يليق بدخول المدينة.

ولكن تعبيرات وجه الطفل لم تتغير، ونظر إلى حذاء الطبيب وكأن بهما شيء ساحر.

نام الصبي بين الملاءات النظيفة. تساءل "تيو" ما إذا كان الطفل قد صادف في حياته أي شيء نظيف من قبل. وليس هذا بسبب تعجب "يوهو" من ملاءات السرير، ولكن لأن الصبي يستقبل كل شيء بنفس رد الفعل، الجوع والبرد، سلطانية الحساء والسرير الدافيء، كل هذا لا يغير من التعبير الجامد على وجه الصبي.

أعطى "لوفجرين" كأسًا لـ"تيو". نهض "تيو" من الفوتيه واتجه إلى النافذة. كان الثلج يتراكم على زجاجها. بدا المشهد غير حقيقي بعض الشيء وهو يراقبه من داخل الغرفة الدافئة. بدا الزجاج الرفيع وكأنه غشاء رقيق بين عالمين. لم يجرؤ أن يلمسه خشية أن يكسر التعويذة فيسمح لما بالخارج أن يدخل إلى واقعه.

كان يفكِّر في المرأة التي تركوها راقدة على الثلج. وكيف كان الثلج يتساقط عليها، في النهاية لم يكن الثلج يغطيها برقة بل كان يفترسها، كبحر هائج يسحب إنسانًا تائهًا إلى أعماقه. كانت المرأة هي أم "يوهو".

والآن لم يعُد له أحد. أصبح تحت مسؤولية "تيو"، ويتوقف مستقبله على كيف سيعامله "تيو".

رأى "تيو" عدة جثث على جانب الطريق خلال تلك الرحلة، ولكن المرأة كانت الوحيدة التي رآها وهي تموت. ماتت سريعًا، بدون طريقة درامية. سقطت فقط ولم تستطع النهوض ثانية. وكأن الأرض ابتلعت روحها وتركت جسدها خاليًا.

ولكن هل تستطيع الروح اختراق هذه الأرض المتجمدة؟ تساءل "تيو". ربما اختفى ما كان بداخل المرأة فحسب. تضاءلت روحُها، كما ستفعل أرواح الجميع. مع البعض، تشتعل الروح سريعًا، تتوهج كقطعة ورقة أُلقيت في النيران. ومع البعض الآخر، تشتعل ببطء لتتحول لرماد تزروه الرياح كما حدث مع تلك المرأة. لو أن أي شيء تبقى من تلك المرأة، فهذا الشيء يكون الصبي. لا يتذكرها سوى "تيو" و"يوهو". وعلى الرغم من أن "تيو" لا يعرف عنها أي شيء باستثناء طريقة موتها، إلا أنه متأكد من أنه سيظل يتذكرها مدة أطول من التي سيتذكرها بها الصبي عندما كانت على قيد الحياة. لايزال الصبي صغيرًا جدًا ولن يحتفظ بتلك الذكريات طويلًا. وعندما يصير "يوهو" رجلًا، ستوقظه ليلًا أحلام مفزعة على ملاءات رطبة ومبللة بالعرق، مناديًا على أمه، ولكنه لن يعرف على مَنْ ينادي.

قاطع "لوفجرين" أفكار "تيو":

- عندما يصبح الطقس أفضل، سنرى الكنيسة هناك.

وأخبر "لوفجرين" "تيو" أنه كان يعرف "بيرج"، وأنه ليس الطبيب الوحيد الذي مات مصابًا بالوباء هذا الشتاء.

- في هذه الحالة، تكون الإصلاحيات هي الحل السليم، يجب أن يبقى الفقراء في المناطق التي يعيشون فيها، فأسوأ شيء يمكن حدوثه هو زيادة أعداد المتسولين المهاجرين.

- سيزيدون.

تحسَّر "لوفجرين":

- كيف يمكن إقناعهم بمدى استحالة تلك الفرصة؟

- مستحيلة، نعم، ولكنها فرصة على أية حال كما قلت.

- يسببون القلق. نُهِبَتْ صومعة الحبوب الخاصة بالأبرشية. ولكن، على الرغم من هذا، فالتيفود هو الخطر الأشد. الجوعى والضعفاء هم الأكثر عرضة له، ولكنه يصيب الأصحاء أيضًا.

قال "لوفجرين" إنه تم بناء إصلاحية بالقرية منذ شهرين، فسأله "تيو":

- ولا تصيبهم الأمراض فيها؟

- يمرض واحد من كل ثلاثةٍ.

- وماذا يعملون في الإصلاحية؟

- حرف يدوية.

- وهل يتم بيع إنتاجهم؟

- ليس بشكل جيد. وحتى إن تم بيع إنتاجهم، فلن يمكنك شراء الطعام بالعائد. ولكن التحكم في الوضع أسهل إذا ما بقي كل فرد في مكانه. تخيل جميع المرضى وهم يجولون البلاد.

- بالطبع، سامحني إن كنت فظًا. فمصير الصبي أصابني بالاكتئاب.

فأجابه "لوفجرين" وهو يصب المزيد من شراب "البنش" في كأس "تيو":

- أتفهم ذلك. وهذا طبيعي جدًا في تلك الحالات، حيث يكون الأقرباء في أسوأ حال، الناس في بلاء كبير الآن.

❄ ❄ ❄

توقف سقوط الثلج في اليوم التالي، ولكن "يوهو" كان أضعف من أن يستكمل الرحلة. فذهب "تيو" مع "لوفجرين" ليتزلجا على تل قريب.

ومن على قمة التل، بدا جمال الأرض المغطاة بالشتاء وهي تأخذ حمامًا شمسيًا. اختفى كل البؤس الذي خلف آثاره في المنطقة تحت الثلج. نظر "تيو" إلى الغابة المستديرة تحت السماء الواسعة وتساءل إلى أي مدى تمتد هذه الغابة. ارتفع فوق الغابة وحلَّق فوق تلال منخفضة، وبحيرات ثلجية وحقول منبسطة، المنازل الرمادية المنتشرة في الحقول مهددة بأن تغمرها الثلوج في أي لحظة يهب فيها بعض الثلج. تتبع مجرى النهر، ثم حلَّق فوق قرية صغيرة تشبه شبكة مشوَّه، نسجها عنكبوت. بدت المنازل كإبر صنوبرية صفراء عالقة بالشبكة. ثم ظهرت الغابة مرة أخرى مرقعة بالحقول، حتى تلألأ البحر المفتوح في الأفق. غاصت الأرض تحت كتل الثلج التي تغطي البحر، وفي مكانٍ ما هناك على طرف شبه جزيرة، توجد "هلسنكي". هبط "تيو" مقتربًا من أسطح المنازل الحجرية، وفي نفس الوقت تحرر البحر من البطانية الثلجية وبقيت بعض القطع الثلجية لتستخدمها مراكب الصيد الصغيرة لترسوا عندها. برزت إحداها وتفككت إلى أسراب من طيور النورس في البحر المفتوح. انحرف تجاه "كاتايانوكا" وظل طافيًا وسط سرب النورس، لتحمله النسائم العاصفة فوق البحر إلى قرب الشاطيء. ومن هناك، رأى "ماتسون" جالسًا بجوار منزله يتفحص شباكه. وبين كل لحظة، يخبط "ماتسون" غليونه في

حجرٍ. كان يفعل هذا، وهو يتحدث إلى "يوهو" الجالس بجواره الذي يركز بشدة كيف يفحص حارسه الشِبَاك. قال "ماتسون" شيئًا ما جعل الطفل يضحك.

بدت الأشجار البعيدة صغيرة جدًا، لكنها كبيرة الحجم كتلك الأشجار التي يقف "تيو" بجوارها الآن، ولو كانت أشجار الصنوبر في هذا العالم صغيرة لهذا الحد، فكيف حجمه إذًا وهو يحمل كل تلك الهموم مقارنة بكل هذا؟

اعتراه نفس الشعور بالضآلة الذي دائمًا ما يراوده كلما نظر إلى البحر في طقسٍ عاصفٍ. وهو ليس بالشعور السيء، فهو شعور محرر.

❄ ❄ ❄

كان البحر المجاور للبلدة القديمة متجمدًا. وفي حقول "كومبولا" كانت الرياح تلقي بالثلج، ولكن هنا، بالقرب من المدينة، لا تشعر بالكآبة كما قد تشعر في الأراضي قليلة السكان بجوار المدينة.

مروا بجماعة من الناس رثة الثياب. ابتعد بعضهم من أمام الزَّلاجة، بينما ظل الآخرون في وسط الطريق يسيرون وكأنهم لا يرونها. وعندما اتجه السائق مباشرة إليهم، أخذوا يلوحون بقبضاتهم ويصرخون لاعنين.

لم يتنح أحد منهم جانبًا في أدب. ربما تعلموا شيئًا خلال تجوالهم: فإمَّا أن تتسكع بعناد في طريقك بدون أن تفسح لأحد، أو أن تخوض في الجليد على جانب الطريق لتبتعد عن أقدام الآخرين وتنحني لهم تواضعًا من هناك. ولكن ربما حينها لن تملك القوة الكافية للعودة، لذا فستظل متجمدًا في مكانك، تتحول إلى تمثالًا أبيضًا كزوجة "لوط".

بعد خط السكة الحديدية الجديد الذي انتهي عند الميناء، تغيرت تضاريس المنطقة، حيث أصبحت صخرية ومتجمدة. وتنتشر المنازل الخشبية البائسة هنا وهناك. وإلى اليسار، تقع الفيلات ما بين الطريق والبحر، ومن عند "هاكنيامي"، ارتفعت خطوط دخان سوداء إلى السماء الزرقاء.

تخيَّل "تيو" كيف أنه في خلال عشرة أعوام، ستملأ المنازل هذا الطريق. في يوم شتاء مشمس كهذا، سيخرج "يوهو" من منزلٍ وسيسير إلى أحد المصانع الصغيرة المتعددة التي ستزدهر هنا طبقًا لكلام "لارس".

سخر "تيو" من أفكاره:

– حياة وردية، وردية جدًا.

أخذهم إلى منطقة صناعية صغيرة مظلمة ومليئة بالداخن. هناك قابل "يوهو"، الذي كان وقتها شابًا مرحًا، ولكنه الآن أصبح يبدو كالعجوز، أصبح مجرد وجهٍ أخر في بحر الوجوه التي كانت هي كذلك في يومٍ ما أطفالًا. ومع ذلك

سيصبح هؤلاء الرجال البؤساء في مصانعهم أكثر عرضة لقسوة الطقس وتقلبات الطبيعة من ما هم عليه الآن في بقاع أراضيهم البائسة وقبضة الطبيعة الكئيبة والمستنقع الذي يحيط بالحقول.

مروا بكشك تحصيل الضرائب، والذي كان فارغًا لأنهم في فصل الشتاء. وما إن وصلوا إلى الجسر القصير، حتى حث السائق حصانه لكي يزيد من سرعته. تعجب "تيو" للسبب الذي يدفع أهل الريف لفعل هذا دائمًا. تأرجحت الزَّلاجة، ولكن "تيو" اعتاد على الطريق غير السوي خلال الرحلة ولم يشعر بالتعب. كما لم يزعج التأرجح "يوهو" أيضًا. عينه الرمادية بلون سحب الشتاء كانت واسعة تنظر باستغراب لكل ما يمر بهم، فتح الصبي فمه عندما مروا على سور لامع يقع خلفه البحر المتجمد. لم يتكلم كثيرًا، ولكنه كان يراقب كل شيء بفضول. فكَّر "تيو" أن هذه علامة جيدة. ستشغله المراقبة عن التفكير في أمه.

كان على السائق أن يهدئ السرعة في "سيلتاساري". فهنا توجد المصانع والورش، والصخب المصاحب لهم. نظر "تيو" إلى الغرب بحنين، فعلى الطرف الغربي للجزيرة يوجد بار اعتاد منذ عدة سنوات عندما كان طالبًا أن يجلس فيه مع "يوهان" و"ماتياس" على طاولتهما الدائمة، كان يراهن ببنساته القليلة في لعبة البولينج، ويشرب ويصيح مغنيًا أناشيد مُنادي القرية. لم يعد "يوهان بيرج" يغني، ولم ينشد له "تيو" أي من

أناشيد المُنادي الوداعية، بل أخذ ينشد التراتيل الكئيبة التي يكرهها كل منهما بشدة. على أي حال كانت تلك التراتيل أكثر ملائمة للمكان، حيث يقع قبر "يوهان" تحت تلك السماء الرمادية، ولكنه كان ليقدر على التمرد على القوى الإلهية بغناء المُنادي: بهذا كان سيُظهر مُتحديًا أن البهجة يمكنها الازدهار بين كل هذا البؤس، وأنها لم تنشأ من الاعتقاد في الجنة ونعيمها في العالم الآخر، ولكنها نشأت من الخِسَّة والشهوانية، والتي عشنا من أجلها في نهاية الأمر، هكذا فكر "تيو".

عندما وصلوا إلى الجسر الطويل، زأر السائق ليحث الحصان على الإسراع مرة أخرى. واعتبر المساكن وما غيرها في الطريق عقبات تمنعه وحصانه من استعراض سرعتهما الجامحة. وإن أردنا الحق، على بقية البشرية أن تتجمع على جانب الطريق لتبدي إعجابها بسرعة السائق. أراد "تيو" أن يذكِّر الرجل بالفرق بين العربة وبين مَنْ يركبها، الطبيب، ولكنه يعلم بأنه سيتلقى نظرة إزدراء، وسيعتبره السائق جبانًا، ولربما بسبب هذا، كان على "تيو" أن يصمت.

ارتاح عندما وصلوا أخيرًا إلى منطقة "سيلتافوري". وبمجرد وصولهم للمدينة، دفع السائق قبعته للخلف وقاد الزلاجة بهدوء مبالغ فيه.



جاء "لارس" ليفتح الباب بنفسه؛ كانت الخادمة تحضر إحد الحفلات الخيرية. لاحظ "لارس" "يوهو" وانحنى ليتفحص الصبي متحيرًا. نظر إليه الصبي وهو يميل رأسه للخلف.

- هل ستأخذه؟

عاد "لارس" يقف بسرعة كبيرة لدرجة أن "تيو" خشي أن يسقط على ظهره. تظاهر "لارس" بأنه أخطأ السمع، وكأن "تيو" قال شيئًا فكاهيًا، فأعاد "تيو" سؤاله في إصرار:

- هل ستأخذ الصبي؟ هل ستربيه؟

ثم أخبره أين وكيف وجد الصبي، وكل ما يعرفه عنه. لم يخبره بالكثير، ولكن "يوهو" نفسه لم يكن يعرف الكثير عن رحلته.

وعندما نجح "لارس" أخيرًا في إخراج الهواء من رئتيه، بدا وكأنه يعترض:

- لا يمكنك أخذ طفل بهذه السهولة.

- ولا يمكنك أيضًا أن تتركه بهذه السهولة.

طلب منه "تيو" أن يأخذ رأي "راكل". اعتقد "لارس" أن هذا لا يهم، فهو مَنْ يأخذ القرارات في أسرتهما، على الأقل هذا النوع من القرارت، فطلب "تيو" من أخيه بأن يأخذ رأي زوجته أيضًا.

قال "لارس" أخيرًا:

- ادخلا.

❄ ❄ ❄

جلسوا جميعًا في غرفة المعيشة، ما عدا "يوهو"، الذي وقف أمام الزهرية الصينية الكبيرة يغرس إصبعه في تربتها. أخبر "تيو" "راكل" بما قاله لـ"لارس"، ونظرت "راكل" طويلًا إلى زوجها. اصطحب "تيو" "يوهو" إلى مكتبة "لارس". اختار *" حكايات إنسن ستول"* من على الرف وعرض الصور على الصبي. حدق "يوهو" فيها بجدية، وترك بصمة إصبع طينية بجوار كل صورة، وكلما زاد تصفحهم كلما ضعف الأثر الذي يتركه إصبعه على الورق.

عندما عادا إلى غرفة المعيشة، كان "لارس" لا يزال مترددًا. ولكن حُسِم الأمر عندما ركعت "راكل" لتجلس بجوار الصبي.

داعبت شعر "يوهو" الأشقر، وكان الصبي يُميل رأسه بعد كل لمسة.

أشارت "راكل" إلى نفسها وقالت:

- ماما.

نظر إليها الصبي متعجبًا بعينيه الرماديتين في لون الجليد، ثم تكسر الجليد فجأة، وابتسم "يوهو"، وجرت الدموع على وجنتي "راكل".



أبريل 1868



بين الحين والأخر، يفاجئك الصوت الرقيق لخرير جداول الماء. الجليد يذوب. في مقبرة الكنيسة القديمة عادت الصلبان تظهر بوضوح. بدوا وكأنهم يريدون ان يظهروا لكي يذكّروا الإنسان بأنه فانٍ أمام دورة الفصول الدائمة.

دخل "لارس رينجويست" الحديقة من بوابة "بوليفاردي". كان يمشى عاقدًا يديه خلف ظهره ناظرًا إلى السماء الصافية. لفت سرب من العصافير انتباهه، وتذكر شهر يوليو السابق، والعصفور الذي كان يدفع قرصًا نحاسيًا على الأحجار الممهدة في ساحة مجلس الشيوخ. كان

العصفور المسكين يحرك رأسه في كل الاتجاهات محاولًا أن يمسك القطعة المعدنية المسطحة بمنقاره، وعندما فشل، دفعها مرة أخرى.

فسأله السيناتور:

- إلى أين تذهب يا "سيسيفوس"؟

ثم التقط عملة العشرة قروش المعدنية، فرفرف العصفور وابتعد قليلًا، ونفخ ريشه غاضبًا.

استخفا من لا مبالاة الناس، ونثرا النقود كحبوب الشعير وكأن هناك محصول سينبت من بين أحجار بلاط السوق. رفع السيناتور العملة المعدنية وتفحصاها في ضوء الشمس، حيث تلألأ حرف الـ"A" الإمبراطوري. أخبر السيناتور "لارس" بأنها باهتة بسبب الأيادي العديدة التي تداولتها. ويدل هذا على شيء واحد من وجهة نظر السيناتور: النشاط الاقتصادي لهذا الشعب، قال السيناتور لـ"لارس" وهو يلكم كتفه بطريقة ودودة:

- مَنْ كان يتخيل؟ بأن هذه العملة كانت بذرة بطريقة أو بأخرى، بذرة أمة، نواة ثروتها.

كان "لارس" أسعد من أي وقت عاشه من قبل. هكذا سيتذكرهما الناس، تمامًا كما يتذكرون "جوتة" و"إيكرمان". فلن يحدث خطأ بعد الآن، لقد حلَّ الصيف أخيرًا، وغطَّتْ أشعة الشمس قبة كنيسة "سان نيكولاس". مع نهاية شهر يونيو، ظهرت إشاعات عن أناسٍ يستخدمون الزلاجات فوق أسطح البحيرات المتجمدة، وكأن الشتاء لن ينتهي أبدًا. وتعاقبت السنوات؛ سنة صعبة تلو الأخرى، ولكن، شعر "لارس" بأن كل شيء سيتحول للأفضل بحلول شهر يوليو. فسيحظى الشوفان بوقتًا كافيًا لينضج. ولكن حلَّ الخريف مبكرًا جدًا، وأعقبه شتاء لا نهائي.

وعلى أية حال، لقد حل الربيع الآن.

قال "لارس" للعصفور:

– أنت مثل مجلس الشيوخ، تتشاجر من أجل الحبوب.

صفَّق بيديه محاولًا إبعاد السرب. بدأت الطيور تحول بينه وبين التركيز على أفكاره. كانوا مشغولين بالقتال فلم يعيروه أدنى انتباه. تعجَّب "لارس" ممَنْ يستطيع حمل حزم التبن حول الحديقة في وقت كهذا، حيث لا توجد قشة متروكة على الأرضية. وتذكر عام 1711، عام الطاعون، وحدّق بتركيز في الجانب الآخر من المنتزه، وكأنه يرى صديق

معرفة قديم على الجانب الآخر من الطريق. مات المئات ودُفنوا هنا، عادة ما يُبتلى هذا الشعب بفساد المحاصيل والأوبئة.

بعد عامين من الطاعون، دمَّر الروس المدينة. ولكن السكان عادوا وبنوها من جديد. في نفس المكان. نجونا من الطاعون والحرب، وكذلك فإننا قادرون على النجاة هذه السنة كذلك، هكذا فكر "لارس"، ولكنه سمع صوت "تيو" يتردد في رأسه:

- ربما سنعبر، بينما لن يقدر آخرون كثر.

تنهد "لارس" وقال للعصفور الذي وقف أمامه ينقر قشة قمح:

- البرلمان ميت طالما السيناتور غائب.

النصيحة - أو الأمر- من الحاكم العام "أدليربرج" للسيناتور بأن يستريح لمدة ثلاثة أشهر من مهامه تعني بأنه قد ترك المجلس. حياته السياسية انتهت، و"لارس" يعلم هذا. لم يكن السيناتور مستعدًا للتقاعد. قد يأتي الربيع في ميعاده هذا العام، ولكن هذا لا يعني شيء في حد ذاته. فحقيقة كئيبة ستبرز من تحت الجليد. وستستمر إراقة الدماء بين الشعب حتى الخريف.

توقف "لارس" عند ناصية الكنيسة القديمة، ثم أمال رأسه قليلًا كدمية خشبية تحركها خيوط غير مرئية، وتخطى سقف قمة الكنيسة ونظر إلى السماء الزرقاء. ومن اتجاه "كاتايانوكا" أتى صوت طلقة المدفع التي يتم إطلاقها كل يوم وقت الظهيرة من ثكنات القوات البحرية.

❄ ❄ ❄

انتشر دوي طلقة المدفع في حارات "كاتايانوكا" ساعيًا إلى الخليج والبحر عبر متاهة الحارات.

أفسح الثلج الموحل تحت قدم "تيو" الممر لظل المنازل، وحماية المباني ذات الأحجار الرديئة. بينما بحث الشتاء القاسي عن ملجأ له في كل كوخ من الأكواخ التي كان يهاجمها منذ عهد قريب من كل اتجاه، ولكن أكواخ "كاتايانوكا" الجافة قاومت هجوم الشتاء، ولازالت قائمة معوجة كأسنان سكانها.

هجمت أشعة شمس الربيع، وذاب الجليد مكونًا جداول صغيرة أحدثت خريرًا بطول الحارة. ووضع الأطفال عجلة في أكبر الجداول.

إن لم تكن قوى الطبيعة تنتوي إلقاء هذه المساكن البائسة إلى البحر، فما الذي يمكنه تدميرها؟

يجلس "ماتسون" على حجر مقابل لباب كوخه المفتوح يعبيء غليونه. لاحظ "تيو" أن الرجل قد فقد وزنًا منذ آخر مرة التقيا فيها. وكثرت الخطوط على وجهه. بدا كشجرة صنوبر نمت على طرف جزيرة صخرية منذ مئة عام: حيث تترك كل خبطة، وكل محنة أثرًا على جزعه، ولكنه يبدو أقوى عن ذي قبل.

خرجت "سارة" من الكوخ، أفرغت القمامة في حفرة ثم عادت للكوخ من جديد. إذا ما فقد "ماتسون" وزنًا، فلقد جفت خدود "سارة" من كل دهن كان بها، ولكن ظهرت عليها أعراض الحمل أكثر مما سبق، حيث تكورت بطنها كتل بارز من وراء بحيرة صافية.

❄ ❄ ❄

أثناء زيارته السابقة، ابتسم "تيو" بينه وبين نفسه وتساءل إن كان يجب عليه مباركة "ماتسون" على الطفل. نظر له "ماتسون" بدوره وكأنه يقيّم مجموعة من أوراق الكوتشينة.

قال "ماتسون" أخيرًا:

– الثلج يذوب.

أخبر "تيو" بنيته في الخروج للبحر بمجرد تحرك السفن مجددًا. سأله "تيو" عمَّا سيفعل بخصوص "سارة". في الحقيقة، كان هذا بالضبط هو ما يريد "ماتسون" أن يتحدث فيه معه. وبدأ "تيو" يبتسم بالفعل مفترضًا أن "ماتسون" سيترك له مهمة توليد "سارة". ولكنه تذكر أنه قد نام أيضًا مع معها، وأخذ يحصي الشهور.

- إنكَ تعيش بمفردك، لماذا لا تأخذ الفتاة لتخدمَك؟ إنها مؤهلة لذلك، بالطبع هي لا تعرف شيئًا عن الأطباق الشهية التي يأكلها شرفاء قومِكَ، ولكن بمقدورها أن تتعلم.

صمت "ماتسون" للحظة، محدقًا في حذائه، زفر نفسًا قليلاً من الدخان باتجاه ركبتيه وبدا متوترًا، وقال في النهاية:

- وليست موهوبة تمامًا.

ثم ابتسم بغباء.

رد "تيو" بمحاولة فاشلة للتبجح:

- وهل يبلى الطريق من كثرة المشي عليه؟

ألقى "ماتسون" نظرة على "تيو"، وكأن السيد طفل لم ينضج بعد يحاول أن يتكلم مثل الرجال، وسأل "تيو":

- والطفل؟ هل هو ابنَك؟

- ابني، ابنَك.. ابن البولندي، مَنْ يعرف؟ ولكنه ابنها على أية حال، ابن "سارة". جميعم يتشابهون عند ولادتهم، فهم أطفال نفس العالم. ولكن، إذا وُلِدَ طفلٌ في كوخ، وآخر وُلد في قصر- هذا ما يشكل الفارق. وهذا يعتمد على الرب. ليس بالضرورة الرب في السماء، فأحيانًا ما يكون للطبيب دور في هذا.

حفرت نظرة "ماتسون" حفرة في "تيو". أدرك "تيو" أن "ماتسون" يظن بأنه والد الطفل. وعاتبه ساخطًا بأنه هو الذي قاده لسرير "سارة" وبالتالي يتحمل المسؤولية كاملة، ولكنه لم يكن مقتنعًا بما يقوله، ثم تساءل بقلق لماذا سمح "ماتسون" للموقف بأن يصل لهذه الحالة، لماذا لم يستدعه في الشتاء، حيث كان بوسعه عمل شيء ما لينقذ الموقف. قرأ "ماتسون" أفكار "تيو"، وقال:

- حاولت أن أجهضها، ولكنها خافت ولم تطاوعني. وتشاجرت معي.

فكر "تيو" في الفضيحة التي ستحدث إذا أحضر امرأة محلية حامل إلى منزله. لا يمكنه حتى التفكير في الأمر.



الآن، يحمل "تيو" متعلقات "سارة" القليلة في حقيبة صغيرة أحضرها معه. سارت "سارة" خلفه، لم تثرثر بما لا يفيد، وأسعده هذا، ولكنه شعر بنظراتها على ظهره، تدفئه، وكأنها شمس الربيع. وفي ساحة السوق، بدا لـ"تيو" أن كل الرؤوس المرتدية القباعات تراقبهما.

أراها الغرف القليلة بشقته، ووعدها بأن يشتري لها كنبة غدًا، اللية ستضطر للنوم على سرير "تيو". وسارع في الحال بإضافة أنه سينام على الفوتيه، فأجابته "سارة":

- ستؤلم ظهرَك بدون داعٍ.

جلست "سارة" على حافة السرير، ثم فتحت حقيبتها ونظرت بداخلها ثم أغلقتها في الحال بدون أن تخرج أشياءها منها.

نظر "تيو" إلى الشارع، ثم إلى انعكاس صورته على زجاج النافذة. رأى عربة تاجر فحم تمر، وامرأة توقفت لتنظر للسماء.

لم يزر "سيسيليا" منذ عودته من جنازة "يوهان بيرج". سمع أنها رحلت في مارس. أخبرته مدبرة المنزل أنها ذهبت وراء رجل أعمال غني إلى "سان بطرسبرج". ولكنه يعرف أنها لن تقدم على مثل تلك الخطوة، فما هو السر الآخر خلف رحيلها؟ وجال بخاطره سبب آخر، سبب أكثر إحباطًا.

قرر "تيو" بألا يقلق بشأن الشائعات التي ستنتشر بخصوص ظهور مدبرة منزل حامل بمنزله، فليس له مستقبل في هذه المدينة على أية حال، ولكنه مهموم أكثر بشأن أخيه "لارس"؛ فهذه الإشاعات ستؤثر على سمعته أكثر.

جلس "تيو" على مكتبه، وفتح يومياته وكتب:

"عندما ينتهي كل هذا، عندما يهدأ الوضع وتفرغ الطرق من جماعات المتسولين، سأرحل إلى "فيبورج" واستقر بها، وعندما يُكمل "أدليربرج" السكة الحديدية، سآخذ القطار وأذهب إلى "سان بطرسبرج" لأبحث عن "سيسيليا".

"ماذا سيحدث بعد ذلك، لا أعلم، بماذا سأخبرها؟ إذا ما تم إثبات وجود أسوأ مخاوفي، هل سيكون بإمكاني عمل أي شيء؟ ربما سأحاول علاجها، أخفف من معاناتها، وبالتالي لن تكون خاتمتها شديدة الآلام".

لازالت "سارة" جالسة على حافة السرير تتحسس بطنها. فكر "تيو"، ستصبح أمًا، وفي هذه اللحظة تذكر المرأة التي ماتت في الثلج والطفل الذي أنقذه. تعلَّم "يوهو" الآن مناداة "راكل" بـ"ماما"، ولكنه لا يناديها أبدًا بـ"أمي". اختفت تلك الكلمة، تاهت في مكان ما بعيدًا في عقله، ستقفذ أحيانًا في أحلامه مسببة فيضان من البرد والجوع والتعب لا يستطيع النوم أن يخفف منه.

- لقد ركل. تعال وتحسسها.

وضع "تيو" كفه على بطن "سارة"، فرفس الطفل مرة أخرى.

فكر "تيو" في أنه ربما يكون الطفل مشتاقًا للحرية، معتقدًا بأنه سيجدها خارج الرحم، وآملًا في أن يتخلص من السلسلة التي تربطه بأمه. مَنْ سيخبر الطفل بأنه لا وجود للحرية الحقيقية بالخارج؟ أننا كلما اقتربنا من الحرية، كلما تمسكنا أكثر بالقيود التي نضعها على أيدينا. نحن نطارد السراب مدفوعين بالقهر. طول القيد يحدد مدى حريتنا، فقط إذا ما رضينا بنصيبنا، استطعنا أن نعيش بدون أن تضايقنا قيودنا. لكن، رغباتنا هي أثقل قيودنا. وعندما نميتها، لا نعود بحاجة إلى المقاومة.



السيناتور



غيَّر من جلسته؛ وقف نصف وقفة وكأن حمل المسؤولية الثقيل لا يزال على كتفيه. نظر السيناتور إلى "لارس رينكفيست" الذي أتى إلى الباب، وتساءل إن كان تلميذه يشعر بالذنب من كونه أطول وأكثر انتصابًا من سيده أم لا.

ولكن بمجرد جلوسه على الفوتيه، اعتدل السيناتور في جلسته، وقال متحسرًا:

- كما تنبأتُ تمامًا، أصبح موقع إنشاء السكة الحديدية المشروع الأكثر كارثية ويحتاج إلى إغاثة طارئة.

أجبر شبح ابتسامة متغطرسة فمه أن ينفتح قليلًا. ضبط السيناتور ابتسامة مشابهة على وجه "رينجويست" قبل أن تختفي سريعًا. وفي تلك اللحظة، فكَّر السيناتور في آلاف الجثث الميتة. الجوع والأوبئة في قمة نشاطهما بين الحشود الكبيرة.

صدى صوت خافت في عقله نبهه إلى أن السكة الحديدية لا زالت تمثل خطوة للأمام بالنسبة لهذا البلد الذي تمتلئ أرضه بالكتل الثلجية: شيء دائم، قاعدة من الممكن تأسيس التقدم نحو الصناعة والرأسمالية عليها، شيء أكبر من الورش التي طورها بنفسه، ولكن المعلم القديم بداخله ضرب الترابيزة بقبضة يده، مخرسًا تلك الأفكار ومُبعدًا إياها إلى الركن المغطى بالعار. وافقه "رينجويست":

- إنها بالفعل مكلفة جدًا من الناحية الإنسانية.

- وليس فقط من الناحية الإنسانية. لن نستطيع إعطاء الأولوية لسعادة فردٍ في مقابل مستقبل الأمة. ولكن تلك الظروف لن يتحملها الاقتصاد القومي. سنظل نسدد تلك الديون لفترة طويلة.

أغمض السيناتور عينيه وتنهد بشدة:

- أخبرني "رينجويست"، هل تعتقد إنني رجل قاسٍ؟

- لا، بالتأكيد لا، إنَك بعيد النظر. القيادة تتطلب قوة الشخصية، وأنت الوحيد بالمجلس الذي يظهر ذلك.

- نعم، لا أعرف إن كنت محاطًا بالذئاب أم الخراف. فليس هناك طرق بديلة حقيقية لإدارة الميزانية. ولم يتوقع أحد خرابًا كهذا. ولو كنت في نفس الموقف الآن كما كنت منذ عام، لم أكن لأفعل شيئًا مختلفًا.

مع هذا كان لا يزال يشعر بالذنب. حيث يتسلل الشعور بالذنب إلى أحلامه كل ليلة. ويخشى أن يلاحقه هذا الشعور إلى القبر. ففي كل ليلة، يمر نفس الجسد الملفوف بالقماش المبهم الوجه في الطريق الثلجي، ويعلم أن ما هذا إلا تجسيدًا للعام الماضي.

انفتح باب غرفة الرسم، ودخلت "راكل"، ساحبة طفلًا صغيرًا في يدها. أضاء نور شمس شهر مايو، الذي مر عبر النافذة، نصف وجه السيناتور المجعد عندما استدار لهما، فأصبح تعبير وجهه ألطف.

- آها، هذا إذن المسمى على اسمي.

- نعم، إنه "يوهان".

كان الطفل يرتدي زي بحار يتلاءم بشدة مع طفل مجعد الشعر له طلة ملائكية. للطفل شعر خفيف مستوٍ، ولم تخف الملابس هيئته

الفلاحية وعلى الرغم من أنه تعلم كيفية هندمة ملبسه، لازالت هناك نفس الدوائر السوداء حول عيني الصبي التي كانت موجودة عندما جاء لأول مرة إلى بيت عائلة "رينجويست"، ولكنها أصبحت أخف قليلًا، واكتسب جلده الشاحب بطبعه مسحة من اللون، واكتسبت عيناه الصغيرتان دفئًا جديدًا بالإضافة إلى جاذبيته الحزينة القديمة.

تم إعداد المائدة. وُضعت السلطانية الصيني أمام "يوهان"، فقدم الشكر والتقط ملعقته بلطف. وفجأة لمعت عيناه وبدا غير واعي بكل مَنْ حوله. بعدها أخذ يملأ فمه بالطعام بشكل جاد، وكأنه يقوم بأداء طقوس مقدسة.

تنهد "لارس" خجلًا من تصرف الصبي:

– حسنًا، الآن لا يرى أو يسمع أي شيء.

ضحك السيناتور ضحكة مكتومة، وضرب على أحد سوالفه:

– ولكنه محق جدًا، عليه أن يأكل ليقوى على الدراسة وبناء مستقبل الأمة.

أمسك السيناتور بكأسه فسقط الخمر على مفرش المائدة. احمر وجه العجوز خجلاً. نهضت "راكل" بسرعة، وابتسمت لضيفها المُحرج، ثم

وضعت بضع ملاعق من الملح على البقعة، فغطت البلورات البيضاء بقعة الخمر الحمراء وبدأت تسوّد تدريجيًا.



خاتمة



انهار جانب القارب. لم ينج من الشتاء، فألواحه لم تتحمل وزن الجليد. اندفع طائر العين الذهبية من عشه وطار فوق القارب المُحطم، انتشر صوت رفرفة جناحيه عبر البحيرة حتى أضاعت الريح كل الأصوات واستبدلتها بالصمت. لكن، دوَّت صيحة طائر "الغوَّاص" الوحيد لتقطع هذا الصمت.

وقف رجل طويل نحيل على حافة المياه. ترك نظره يتجول على الأمواج والشاطيء المقابل. وتمايل جسده الذي أتلفه الجوع والمرض مع الريح. استطاع أن يقف منتصبًا بمساعدة عصاه فقط. ثم أفلتت الأصابع الطويلة النحيفة العصا التي سقطت محدثة صوت يشبه صوت ارتطام

رمح بحزمة من البوص. انخفض الرجل بحذر متخذًا وضع الجلوس على حجر مجاور للمياه، ثم خلع حذائه، ونزع سترته البالية، وقميصه وبنطاله، ونزل إلى البحيرة عاريًا. كانت المياه لاتزال باردة، ولكن الرجل بالكاد لاحظ هذا، فالبرد الذى عانى منه كان كبيرٌ بطريقة لا يمكن استيعابها حتى أنّه في النهاية تحوَّل إلى فراغ كبير.

أتى الصيف. تشبث الرجل بهذه الفكرة، آملًا أن يملأ بها فراغ عقله، فلا تبقى به مساحة لأي شيء آخر. صاح طائر "الغوَّاص" مرة أخرى. غاص الرجل في المياه أكثر، وعندما وصلت المياه فوق ركبتيه، فرد ذراعيه ورمى جسده للأمام. استقبلته البحيرة.. غمرته المياه وهو يهبط ببطء نحو القاع، وللحظة، اعتقد الرجل أنه لن يطفو ثانية.

ثم بدأ يسبح.

